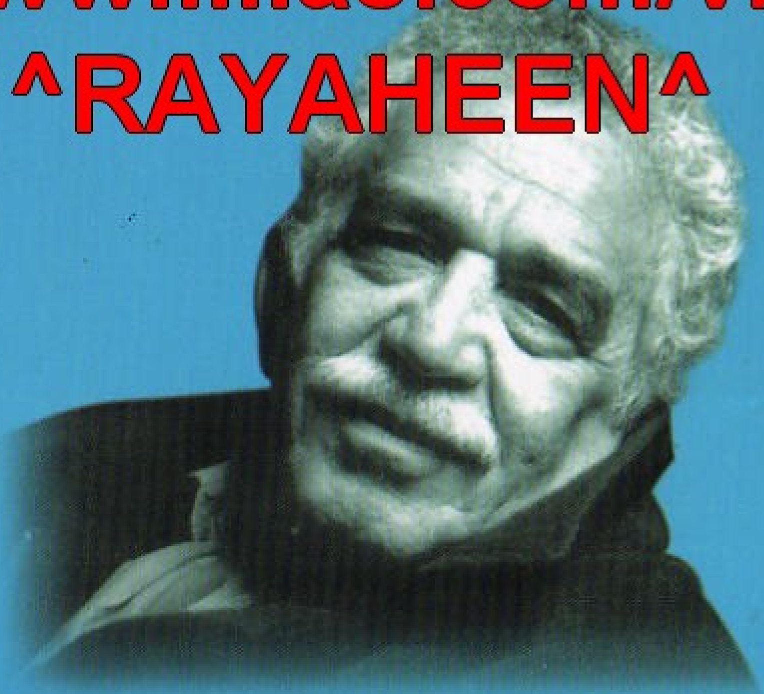
١٩٨٢

مكتبة نوبل

غابرييل غارسيا ماركيز

قصة موت معلن



ترجمة: صالح علماني

غابرييل غارسيا ماركيز

نوبل ١٩٨٢



■ ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام ١٩٢٨ في أراكاتاكا ، شمال كولومبيا ، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية ، لينتقل بعدها الى الجامعة .

■ عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمها روما ، وباريس (عام ١٩٦٠ حيث كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده ، فاضطر الى بيع الزجاجات الفارغة والاشتراك مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء!) - كتب حينذاك روايته «ليس للكولونيل من يكاتبه» . كما أنه أقام في مكسيكو وكتب عدة سيناريوهات سينمائية . نشر ماركيز أول قصة له عام ١٩٥٥ وكانت «غرباء الموز» ، ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها الألف نسخة .

■ ذاع صيته بعد نشره لرائعته «مائة عام من العزلة» عام ١٩٦٧ ، والتي نبهت العالم إليه ككاتب متميز (تُرجمت الى ٣٢ لغة بينها العربية) ، لا بل فجرت اهتماماً استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل .

ISBN => 2-84305-208-4
EAN => 9782843052088

تصيد الحب
ضرب من الخيلاء

في اليوم الذي كانوا سيقتلونه فيه ، استيقظ سنتياغو نصار في الساعة الخامسة والنصف صباحاً لينتظر وصول المركب الذي سيأتي فيه المطران . كان قد حلم بأنه يجتاز غابة من أشجار التين حيث كان يهطل رذاذ مطر ناعم ، وأحس في أحلامه بالسعادة للحظة ، لكنه ما أن استيقظ حتى أحس كما لو أنه ملوث بكامله بزرق العصافير . «كان يحلم بالأشجار دوماً» ، هذا ما قالته لي أمه ، بلاثيدا لونيرو ، وهي تستحضر بعد سبع وعشرين سنة تفاصيل أحداث يوم الاثنين المشؤوم ذاك . وقالت لي : «في الأسبوع السابق كان قد حلم بأنه يمضي وحيداً في طائرة من رقائق القصدير وأنها كانت تطير به ما بين أشجار اللوز دون أن يصطدم بها» . لقد كانت لها سمعة طيبة أحرزتها بتفسيرها الصائب لأحلام الآخرين ، إذا ما رويت لها تلك الأحلام قبل أن تتناول أي طعام ، لكنها لم تنتبه إلى أي فأل مشؤوم في هذين الحلمين اللذين حلم بهما ابنها في أصباح الأيام التي سبقت موته .

ولم ينتبه سنتياغو نصار نفسه كذلك إلى نذير الشؤم . كان قد نام قليلاً وبصورة سيئة ، دون أن يخلع ملابسه ، واستيقظ وهو يعاني ألماً في رأسه وترسبات كترسبات ركاب نحاسي في حلقه ، وفسر ذلك على أنه مجرد

آلام طبيعية من آثار حفلة الزفاف التي امتدت إلى ما بعد منتصف الليل . جميع الأشخاص الذين التقى بهم منذ خروجه من البيت في الساعة السادسة وخمس دقائق إلى أن جرى تمزيقه مثل خنزير بعد ساعة من ذلك ، يتذكرون بأن شيئاً من النعاس كان بادياً عليه ولكن مزاجه كان جيداً ، وقد تحدث معهم جميعاً بصورة عابرة وقال لهم إن ذلك اليوم هو يوم بديع . ولم يكن أي منهم متأكداً إذا ما كان يشير بذلك إلى حالة الجو . ولقد ارتبط في ذاكرة الكثيرين بأنه كان صباحاً مشرقاً يتخلله نسيم بحري يأتي من خلال بيارات الموز ، مثلما يمكن للمرء أن يتخيل كيف يكون الصباح في تلك الفترة من شهر شباط . ولكن غالبيتهم كانت متفقة على أنه كان جواً مأتمياً ، بسماء معكرة ومنخفضة ورائحة كثيفة من المياه الراكدة ، وأنه كان يهطل في لحظة المصيبة رذاذ خفيف مثل الذي رآه سنتياغو نصار في غابة الحلم . كنتُ حينئذ أستعيد قواي ، بعد حفلة الزفاف ، في حضن ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس الأمومي ، واستيقظتُ بصعوبة على ضجة النواقيس وهي تقرع بذعر ، لأنني ظننت بأنهم يقرعونها احتفاء بالمطران .

ارتدى سنتياغو نصار بنطالاً وقميصاً من الكتان الأبيض ، كلاهما بلا نشاء ، مثلهما مثل البنطال والقميص اللذين ارتداهما في اليوم السابق من أجل حفلة الزفاف . كان هذا هو زيه في المناسبات . ولولا قدوم المطران لكان ارتدى الملابس الخاكية وجزمة ركوب الخيل التي اعتاد الذهاب بها في أيام الاثنين إلى مزرعة الديفينو روسترو ، مزرعة المواشي التي ورثها عن أبيه ، والتي كان يديرها بحكمة بالغة ولم يكن يحصل منها مع ذلك على ربح كبير . وأثناء وجوده في الجبل كان يعلق في حزامه مسدساً من طراز ماغنوم ٣٥٧ ، بإمكان رصاصاته المصفحة ، كما كان يقول ، أن تخترق جواداً من خاصرته . وفي موسم صيد الحجل كان يأخذ معه أيضاً معدات التصقر .

وكان يحتفظ في الخزانة كذلك ببندقية مالينشير شوناور ٣٠ . ٠٦ وبندقية هولاند ماغنوم ٣٠٠ ، وأخرى من طراز هورنت ٢٢ مزودة بمنظار تلسكوبي ، وبندقية ونشستر تتسع لعدة طلقات . وكان ينام دوماً مثلما كان ينام أبوه ، وهو يخبئ سلاحاً في جراب الوسادة ، لكنه قبل أن يغادر البيت في ذلك اليوم أفرغ المسدس من الرصاص ووضعه في درج الكوميدينو . وقد قالت لي أمه : «لم يكن يترك السلاح محشواً أبداً» . وهو ما كنت أعرفه ، وأعرف أيضاً أنه يضع الأسلحة في مكان ويخبئ الذخائر في مكان آخر منفصل تماماً ، بحيث لا يتمكن أحد ولو بالصدفة من الاستسلام لوساوس حشو السلاح داخل البيت . لقد كانت عادة حكيمة فرضها والده منذ صباح ذلك اليوم الذي حاولت فيه إحدى الخادمات أن تنفض الوسادة لتنتزعها من جرابها ، فانطلقت رصاصة من المسدس عند ارتطامه بالأرض ، وثقبت خزانة الغرفة ، واخترقت جدار الصالة ، ثم مرت بدوي حرب من خلال غرفة الطعام في البيت المجاور لتحول إلى فتات من الجبس تمثال قديس بالحجم الطبيعي موضوع على المذبح الكبير في الكنيسة ، في الجانب الآخر من الساحة ، ولم ينس سنتياغو نصار الذي كان حينئذ طفلاً صغيراً ، الدرس الذي تعلمه من تلك الحادثة الخطيرة .

الذكرى الأخيرة التي تحفظها أمه عنه هي مروره العاجل في غرفة النوم . فقد أيقظها بينما كان يحاول العثور باللمس عن قرص أسبرين في علبة الأدوية الموجودة في الحمام ، فأضاءت النور ورأته وهو يظهر في الباب حاملاً بيده كأس الماء ، بالوضع الذي ستتذكره فيه إلى الأبد . عندئذ روى لها سنتياغو نصار الحلم ، لكنها لم تول أي اهتمام لرؤيا الأشجار . وقالت له :

- جميع الأحلام التي فيها عصافير هي أحلام خير .

لقد رأته وهي في أرجوحة النوم نفسها وفي الوضع نفسه الذي وجدتُها فيه منهوكة القوى بفعل آخر ومضات الشيخوخة ، عندما عدتُ إلى هذه القرية محاولاً إعادة تركيب مرآة الذاكرة المهشمة إلى شظايا مفتتة . لم تكن تميز الأشكال إلا بصعوبة حتى في وضح الضوء ، وكانت تضع رقائق طبية على صدغيها لتخفيف ألم الرأس الدائم الذي خلفه لها ابنها عندما مرّ آخر مرة من غرفة النوم . كانت مستلقية على جانبها ، ممسكة بأعلى أرجوحة النوم لتحاول النهوض . وفي الظلام كانت تنتشر رائحة كرائحة حوض العماد التي فاجأتني في صباح يوم الجريمة .

ما كدت أظهر في فراغ الباب حتى اختلط الأمر عليها مع ذكرى سنتياغو نصار . فقالت لي : « كان يقف هناك ، وهو يرتدي الملابس الكتانية البيضاء المغسولة بالماء فقط ، لأن بشرته الحساسة جداً لم تكن تتحمل خشونة النشاء » . بقيتْ لبرهة طويلة جالسة في أرجوحة النوم وهي تمضغ حب الهيل ، إلى أن فارقتها أوهام عودة ابنها . عندئذ تنهدتْ : « لقد كان رجل حياتي » .

لقد رأيته في ذاكرتها . كان قد أتم إحدى وعشرين سنة في الأسبوع الأخير من كانون الثاني ، نحيلاً شاحباً ، له حاجبان عربيان وشعر أجعد ورثه عن أبيه . كان الابن الوحيد لزواج تعايش لم يعرف لحظة واحدة من السعادة ، أما هو فكان يبدو سعيداً مع أبيه إلى أن توفي هذا الأخير فجأة قبل ثلاث سنوات ، وبقي يشبهه وهو مع الأم المتوحدة حتى يوم الاثنين الذي مات فيه . لقد ورث عنها الفطرة . وتعلم من أبيه وهو ما يزال طفلاً صغيراً استخدام الأسلحة النارية وحب الخيول وترويض طيور الصيد الجارحة ، وتعلم

منه أيضاً فنون الشجاعة والفطنة . كانا يتكلمان فيما بينهما بالعربية ، لكنهما لا يفعلان ذلك أثناء وجود بلاثيدا لينيرو حتى لا تشعر بأنها مستبعدة . لم يرهما أحد يحملان السلاح في القرية ، والمرة الوحيدة التي أحضرا بها صقورهما المروضة كانت للقيام بعرض تصقر في سوق خيري . لقد اضطره موت والده إلى ترك دراسته عند انتهائه من المدرسة الإعدادية ، ليتولى مسؤولية مزرعة العائلة . وكان سنتياغو نصار ، بتأهيله الخاص ، مرحاً ومسالماً ، وذا قلب بسيط .

في اليوم الذي كانوا سيقتلونه فيه ، ظنت أمه بأنه قد أخطأ في تحديد اليوم عندما رأته مرتدياً ملابسه البيضاء . وقد قالت لي : « نبهته إلى أن اليوم هو الاثنين » . لكنه أوضح لها بأنه ارتدى ملابسه الاحتفالية ليكون جاهزاً إذا ما سنحت له فرصة تقبيل خاتم المطران . لم تبد هي أي علامة من علامات الاهتمام ، وقالت له :

- لن يتكرم بالنزول من المركب . سيلقي ببركاته كالعادة ، ويمضي من حيث أتى . إنه يكره هذه القرية .

كان سنتياغو نصار يعرف أن هذا صحيح ، ولكن أبهة الكنيسة كانت تفتنه فتنة لا تُقاوم . « إنها كالسينما » ، هكذا قال لي مرة . أما ما كان يهم والدته بالمقابل من قدوم المطران ، هو ألا يبتل ابنها بالمطر ، إذا أنها سمعته يعطس في أثناء نومه . نصحته بأن يأخذ معه مظلة ، ولكنه أومأ لها بيده مودعاً وخرج من الغرفة . وكانت تلك هي آخر مرة تراه فيها .

الطاهية فيكتوريا غوثمان متأكدة من أن المطر لم يهطل في ذلك اليوم ، ولا في شهر شباط كله . فقد قالت لي عندما أتيت لرؤيتها ، قبل موتها بقليل : « بالعكس ، لقد نشرت الشمس الدفء في وقت أبكر مما يحدث

في أصباح شهر آب» . كانت تقطع ثلاثة أرانب من أجل الغداء ، وهي محاطة بكلاب لاهثة ، عندما دخل سنتياغو نصار إلى المطبخ . وتتذكر فيكتوريا غوثمان دون حب : «كان يستيقظ دائماً وعلى وجهه ما يدل على أنه أمضى ليلة سيئة» . قدمت ابنتها ديفينا فلور ، التي بدأت تتفتح ، إلى سنتياغو نصار فنجان قهوة ثقيلة مع رشفة من خمرة القصب ، مثلما كانت تفعل كل يوم اثنين ، لتساعده على تحمل ثقل الليلة السابقة . المطبخ الرحب ، وهسيس النار والدجاجات النائمة على القوائم الخشبية ، كان لها كلها تنفس صموت . مضغ سنتياغو نصار قرصاً آخر من الأسبرين وجلس ليحتسي فنجان القهوة برشفات بطيئة ، وهو يفكر بتمهل ، دون أن يرفع نظره عن المرأتين اللتين تنتزعان أحشاء الأرانب قرب الموقد . وبالرغم من تقدمها في السن ، ظلت فيكتوريا غوثمان تحتفظ بكل جمالها . أما البنت التي كانت ما تزال جامحة بعض الشيء ، فبدت وكأنها تختنق باندفاع غددها . أمسك سنتياغو نصار بمعصمها عندما اقتربت لترفع الفنجان الفارغ من أمامه ، وقال لها :

ـ ها قد أصبحت في السن المناسبة للترويض .

فرفعت فيكتوريا غوثمان السكين الدامي أمامه وأمرته بجدية :

ـ أفلتها أيها الأبيض . فلن تشرب من هذا الماء ما دمتُ على قيد الحياة .

كان إبراهيم نصار قد أغوى بها وهي في أوج مراهقتها . ومارس الحب معها لعدة سنوات في إسطبلات المزرعة ، ثم نقلها لتخدم في البيت عندما خمدت عاطفته . وديفينا فلور التي كانت ابنتها من زوج جديد ، كانت تعلم بأنها مرصودة لسرير سنتياغو نصار السري ، وكانت هذه الفكرة تسبب لها

قلقاً مبكراً . «لم يولد رجل مثل هذا بعد» ، هكذا قالت لي ديفينا فلور البدينة الكئيبة والمحاطة بأولاد أنجبتهم من غراميات أخرى ، فردت عليها فيكتوريا غوثمان : «لقد كان مثل أبيه بالضبط : خراء» . ولكنها لم تستطع تجنب ومضة فزع وهي تتذكر رعب سنتياغو نصار عندما انتزعت بشدة أحشاء أحد الأرانب وألقت إلى الكلاب بالأمعاء الدافئة .

فقال لها :

ـ لا تكوني همجية . تصوري لو أنه كائن بشري .

لقد احتاجت فيكتوريا غوثمان إلى قرابة عشرين عاماً لتفهم كيف يمكن لرجل اعتاد على قتل حيوانات عزلاء أن يبدي فجأة مثل ذلك الرعب . وهتفت فزعة : «رباه! كل ذلك كان وحياً إذن!» ، ومع ذلك ، فقد كان بها غضب شديد سابق لصباح يوم الجريمة ، فواصلت علف الكلاب بأحشاء الأرنبين الآخرين ، لا لشيء إلا لتنغص على سنتياغو نصار فطوره . وكانا على تلك الحال عندما استيقظت القرية بأسرها على رجة الجؤار المنبعث من المركب البخاري الذي وصل فيه المطران .

كان البيت عبارة عن مستودع قديم من طبقتين ، جدرانه من ألواح خشب خشنة وسقفه من التوتياء المموج ، ترابط فوقه طيور الرخمة التي تأكل فضلات الميناء . وقد شيد في زمن كان النهر فيه غزيراً ، فكانت مراكب شحن بحرية كثيرة ، بما في ذلك بعض السفن الكبيرة ، تغامر بالدخول إلى هنا عبر المستنقعات المتشكلة عند مصب النهر . وعندما جاء إبراهيم نصار مع العرب الآخرين ، بعد انتهاء الحروب الأهلية ، كانت البواخر قد توقفت عن الوصول إلى هنا بسبب التغيرات التي طرأت على النهر ، وكان المستودع مهجوراً . فاشتراه إبراهيم نصار بثمن بخس ليقيم فيه مخزناً

للاستيراد . لكنه لم يفعل ذلك مطلقاً ، وعندما أراد أن يتزوج فقط ، حوّله إلى بيت للسكن . حوّل الطابق الأرضي إلى صالة تنفع لكل شيء ، وأقام في العمق مربطاً للخيل يتسع لأربعة حيوانات ، هي حيوانات الخدمة الأربعة ، ومطبخاً له نوافذ من جهة الميناء تنفذ منها طوال الوقت روائح الماء الكريهة . الشيء الوحيد الذي تركه على حاله في الصالة هو السلّم الحلزوني المأخوذ من باخرة غارقة . وفي الطابق العلوي ، حيث كانت توجد مكاتب الجمارك قبلاً ، أعد غرفتي نوم واسعتين وخمس قمرات للأبناء الكثيرين الذين كان يفكر بإنجابهم ، كما أعد شرفة خشبية تطل على أشجار اللوز في الساحة ، حيث كانت تجلس بلاثيدا لينيرو في أمسيات شهر آذار لتواسي نفسها في وحدتها . واحتفظ في الواجهة الأمامية للبيت بالبوابة الرئيسية وجعل فيها نافذتين بحجم الجسد كاملاً فيهما قضبان معدنية مخروطة . واحتفظ كذلك بالبوابة الخلفية التي اكتفى برفعها قليلاً لكي يتمكن من المرور منها وهو على الحصان ، وحافظ على قسم من الميناء القديم في حالة صالحة للاستخدام . تلك البوابة الخلفية كانت هي الأكثر استخداماً على الدوام ، ليس لأنها المدخل الطبيعي إلى المذاود والمطبخ وحسب ، وإنما لأنها تؤدي إلى شارع الميناء الجديد دون المرور في الساحة . أما البوابة الأمامية ، وباستثناء بعض المناسبات الاحتفالية ، فكانت تبقى مقفلة بالرتاج . ومع ذلك ، فأمام هذه البوابة ، وليس أمام البوابة الخلفية ، كان الرجلان اللذان سيقتلان سنتياغو نصار ينتظرانه ، ومنها خرج هو لاستقبال المطران ، على الرغم من أنه اضطر للالتفاف حول البيت في دورة كاملة ليصل إلى الميناء .

لا يمكن لأحد أن يفهم كل تلك المصادفات المأتمية الكثيرة . ولا بد أن قاضي التحقيق الذي حضر من ريوهاتشا أحس بها دون أن يجرؤ على

قبولها ، لأن اهتمامه بإعطاء تفسير عقلاني كان واضحاً في المحضر . وقد ورد ذكر البوابة المؤدية إلى الساحة عدة مرات تحت اسم «بوابة القدر» . والحقيقة أن التفسير الوحيد الذي يبدو مقبولاً هو ما قالته بلاثيدا لينيرو ، التي أجابت على السؤال بعقل الأم : «لم يكن من عادة ابني أن يخرج أبداً من البوابة الخلفية وهو يرتدي ملابس جيدة» . يبدو أنها حقيقة بسيطة ، سجلها المحقق في ملاحظة هامشية ، لكنه لم يثبتها في المحضر .

أما فيكتوريا غوثمان من جهتها ، فكانت واضحة في إجابتها بأنها لم تكن تعلم هي ولا ابنتها بأنهم كانوا ينتظرون سنتياغو نصار لقتله . ولكنها بعد مرور السنوات اعترفت لي بأنهما كانتا تعرفان ذلك عندما دخل إلى المطبخ ليتناول القهوة . فقد أخبرتهما بالأمر امرأة مرت بهما في الساعة الخامسة لتطلب قليلاً من الحليب كصدقة ، وكشفت لهما كذلك الأسباب والمكان الذي ينتظرونه فيه . «لم أحذره لأنني ظننت بأنها مجرد تهديدات سكارى» ، هكذا قالت لي . ومع ذلك ، فقد اعترفت لي ديفينا فلور في زيارة لاحقة ، بعد أن كانت أمها قد ماتت ، بأن هذه لم تقل شيئاً لسنتياغو نصار لأنها في أعماق روحها كانت ترغب في أن يُقتل . أما هي فلم تحذره لأنها لم تكن حينذاك سوى طفلة رعديدة ، عاجزة عن اتخاذ قرار بنفسها ، وقد خافت كثيراً عندما أمسكها من معصمها بيدٍ أحست أنها باردة ومتحجرة مثل يد ميت .

اجتاز سنتياغو نصار البيت المظلم بخطوات واسعة ، يلحق به هدير الابتهاج من مركب المطران . سبقته ديفينا فلور لتفتح له الباب ، محاولة ألا تسمح له باللحاق بها بين أقفاص الطيور النائمة في المطبخ ، وبين المفروشات الخيزرانية وأصص السرخس المعلقة في الصالة ، ولكنها عندما

نزعت المزلاج لم تستطع أن تمنع يد الباشق الجارح مرة أخرى . « ولقد أمسكت بي » . قالت لي ديفينيا فلور . ثم أردفت : « وهذا ما كان يفعله كلما وجدني وحيدة في أحد أركان البيت . ولكنني لم أشعر في ذلك اليوم بالخوف المعتاد وإنما برغبة جامحة في البكاء » . ابتعدت لتفسح له الطريق للخروج . ومن خلال البوابة المفتوحة رأت أشجار اللوز في الساحة ، وقد غطاها بريق الفجر بوهج ثلجي . لكنها لم تمتلك الجرأة لرؤية أي شيء آخر . وقالت لي : « عندئذ توقف صفير المركب وبدأ صياح الديوك . لقد ثارت ضجة عظيمة . حتى أنني لم أستطع أن أصدق بأن في القرية مثل ذلك العدد الكبير من الديكة . وفكرت بأنها قد أحضرت في مركب المطران » . والشيء الوحيد الذي استطاعت فعله من أجل الرجل الذي لن يكون لها أبداً ، هو أنها لم تغلق البوابة بالمزلاج . متجاوزة بذلك أوامر بلاثيدا لينيرو ، حتى يتمكن من الدخول مرة أخرى إلى البيت في حال مجيئه مستعجلاً . وكان شخص لم تُعرف هويته قط قد دفع من تحت الباب بورقة ضمن مغلف ، ينذر فيها سنتياغو نصار بأن هناك من ينتظره لقتله ، ويكشف له كذلك عن المكان والأسباب . وعن تفاصيل أخرى دقيقة جداً حول المكيدة . وقد كانت الرسالة على الأرض عندما خرج سنتياغو نصار من البيت . لكنه لم يرها . ولم ترها ديفينيا فلور ولا أي شخص آخر إلا بعد مضي وقت طويل على اقتراف الجريمة .

عندما أعلنت الساعة السادسة . كانت الأنوار العامة ما تزال مضاءة وكانت الأكاليل الملونة الخاصة بحفلة الزفاف ما تزال معلقة على أغصان أشجار اللوز وعلى بعض الشرفات ، حتى يمكن للمرء أن يفكر بأنهم قد علقوها للتو تكريماً للمطران . ولكن الساحة المرصوفة بالبلاط حتى مدخل الكنيسة ، حيث أقيمت منصة الموسيقيين . كانت تبدو وكأنها مزبلة

للزجاجات الفارغة وكل أنواع الفضلات المتخلفة من الحفلة العامة . عندما خرج سنتياغو نصار من بيته . كان عدد من الأشخاص يهرعون نحو الميناء ، يشدهم صفير المركب .

المحل الوحيد الذي كان مفتوحاً في الساحة هو دكان لبيع الحليب يقع في أحد جوانب الكنيسة ، حيث كان الرجلان اللذان ينتظران سنتياغو نصار لقتله . صاحبة المحل ، كلوتيلدي أرمينتا ، كانت أول من رآه في تألق الفجر . وطغى عليها شعور بأنه يرتدي ملابس من الألمنيوم . « ولقد بدا لي مثل شبح » . هكذا قالت لي . الرجلان اللذان يريدان قتله كانا قد ناما على المقاعد ، وهما يشدان إلى حضنيهما السكاكين الملفوفة بأوراق الصحف . فحبست كلوتيلدي أرمينتا أنفاسها حتى لا توقظهما .

إنهما توأمان ، بيدرو وبابلو فيكاريو . لهما من العمر أربع وعشرون سنة . وهما متشابهان تماماً إلى حد يصعب معه التمييز بينهما . ومما جاء في محضر التحقيق : « لهما مظهر غليظ ولكنهما من طبيعة طيبة » . ولو كنت أنا الذي عرفتهما منذ المدرسة الابتدائية ، من كتب التحقيق لقلت الكلام نفسه . وكانا في ذلك الصباح ما يزالان يرتديان البدلات السوداء التي ارتدياها لحفلة العرس . وهي ملابس سميكة ورسمية بالنسبة لمنطقة الكاريبي . وكان مظهرهما مشعثاً بسبب الساعات الطويلة التي أمضياها في السهر والشرب . لكنهما أديا واجب حلاقة ذقنيهما . ومع أنهما لم يتوقفا عن تناول الشراب منذ اليوم السابق لحفلة الزفاف . فإنهما لم يكونا مخمورين بعد مرور ثلاثة أيام ، وإنما كانا يبدوان وكأنهما مسرنمين مؤرقين . ناما مع نسمات الفجر الأولى ، بعد حوالي ثلاث ساعات من الانتظار في دكان كلوتيلدي أرمينتا . وتلك كانت غفوتهما الوحيدة منذ يوم

السبت . وقد استيقظا قليلاً عندما انطلق صفير المركب ، ولكن الغريزة أيقظتهما تماماً عندما خرج سنتياغو نصار من منزله . أمسك كل منهما حينئذ بلفافة الصحف ، وبدأ بيدرو فيكاريو بالنهوض .

دمدمت كلوتيدي أرمينتا :

ـ حباً بالرب . اتركاه إلى ما بعد ، وليكن ذلك احتراماً للسيد المطران .

« كانت تلك نفحة إلهام من الروح القدس » ، هكذا كانت تردد باستمرار . وفعلاً ، كان توسلها خاطراً صادراً عن العناية الإلهية ، لكن صلاحيته كانت مؤقتة . ففكر التوأمان لدى سماع ما قالته لهما ، والذي كان قد نهض منهما عاد للجلوس . وتابعا بنظرهما سنتياغو نصار عندما بدأ باجتياز الساحة . وتقول كلوتيلدي أرمينتا : « كانا ينظران إليه بأسى » . في تلك اللحظة كانت تلميذات مدرسة الراهبات يجتزن الساحة مسرعات بفوضى وهن يرتدين الملابس الخاصة باليتيمات .

لقد كانت بلاثيدا لينيرو محقة ، فالمطران لم ينزل من المركب . أناس كثيرون تجمعوا في الميناء بالإضافة إلى السلطات وأطفال المدارس ، وفي كل الأنحاء كانت توجد أقفاص الديوك المعلوفة جيداً والتي أحضروها كهدايا للمطران ، لأن حساء أعراف الديكة كان طبقه المفضل . وعلى رصيف الشحن في الميناء كانت ترتفع أكوام كثيرة من الحطب سيحتاج المركب إلى ساعتين من الوقت على الأقل لتحميلها . ولكنه لم يتوقف . فقد ظهر عند منعطف النهر وهو يزمجر كتنين ، وعند ذلك بدأت الجوقة الموسيقية بعزف نشيد المطران ، وانطلقت الديكة بالصياح في الأقفاص وبتحريض الديكة الأخرى التي في القرية .

في تلك الحقبة ، كانت المراكب الأسطورية ذات العجلة التي تتغذى بالحطب على وشك الانقراض ، والمراكب القليلة المتبقية منها في الخدمة لم يعد فيها بيانو أوتوماتيكي ولا قمرات من أجل شهر العسل ، ولم تكن قادرة على الإبحار بعكس التيار إلا بصعوبة بالغة . لكن هذا المركب كان جديداً ، وله مدخنتان بدلاً من واحدة يحيط بها رسم العلم الوطني مثل سوار ، وعجلة المؤخرة المصنوعة من ألواح متينة كانت تدفع المركب بقوة وكأنه سفينة بحرية . وعلى الشرفة العلوية ، إلى جانب قمرة القبطان ، وقف المطران بمسوحه البيضاء مع بطانته من الإسبان . « إنه يقوم بجولة أعياد الميلاد » ، هكذا قالت أختي مارغوت . وما جرى ، حسب قولها ، أن صفير المركب أطلق دفقة من البخار المضغوط عند مروره بالميناء ، مما بلل الذين كانوا يقفون قريباً من الضفة . لقد كان حلماً عابراً : بدأ المطران برسم إشارة الصليب في الهواء مقابل الحشود التي في الميناء ، ثم تابع ذلك عن ظهر قلب ، دون تبصر ولا إلهام ، إلى أن اختفى المركب عن الأنظار ولم يبق سوى هياج الديوك .

كانت لدى سنتياغو نصار أسباب للشعور بالغبن . فقد تبرع بعدة شحنات من الحطب بناء على طلب الأب كارمن آمادور ، وانتقى بنفسه كذلك الديكة ذات أشهى الأعراف لديه . لكنه كان إحساساً مؤقتاً . فقد لاحظت أختي مارغوت ، التي كانت معه في الميناء ، أنه يتمتع بمزاج طيب جداً وبحماس لمتابعة الحفلة ، بالرغم من أن قرصي الأسبرين لم يخففا عنه شيئاً . وقالت لي : « لم يكن يبدو عليه أنه مصاب بالزكام ، وكان يفكر فقط بتكاليف حفلة الزفاف » . وكشف كريستو بيدويا ، الذي كان معهما ، أرقاماً ضاعفت من دهشته . فقد كان في حفلة الزفاف مع سنتياغو نصار ومعي إلى ما قبل الساعة الرابعة بقليل ، لكنه لم يذهب إلى بيت والديه ، وإنما بقي

يتسامر في بيت جديه . وهناك حصل على معلومات كثيرة كانت تنقصه ليحسب تكاليف حفلة الزفاف . فروى لهما بأنهم قد ذبحوا أربعين ديكاً رومياً وأحد عشر خنزيراً للمدعوين ، وأربعة عجول وضعها العريس للشواء في الساحة العامة من أجل أهل القرية . وروى لهما أنه تم استهلاك مائتين وخمسة صناديق من المشروبات الروحية المهربة ، وحوالى ألفي زجاجة من روم القصب وزعت على الحشود ولم يبق شخص واحد ، لا غني ولا فقير ، إلا وشارك بطريقة أو بأخرى في أضخم حفل زفاف شهدته القرية ، وحلم سنتياغو نصار بصوت عال قائلاً :

ـ هكذا سيكون عرسي . لن يمتد بكم العمر لحساب تكاليفه .

أحست أختي بمرور الملاك . وفكرت مرة أخرى بحظ فلورا ميغيل الطيب ، التي أصابت أموراً كثيرة من الحياة ، وستحصل فوق ذلك على سنتياغو نصار في عيد الميلاد من تلك السنة . قالت لي : «لقد تنبهت فجأة إلى أنه لا يمكن وجود مكسب أكبر منه . تصور : إنه جميل ، وجدي ، ويملك ثروة خاصة به وحده وهو لا يزال في الحادية والعشرين من العمر» . لقد اعتادت أن تدعوه لتناول الفطور في بيتنا عندما نصنع فطيرة اليكة ، وقد كانت والدتها تصنعها في ذلك الصباح . وافق سنتياغو نصار على الدعوة بحماس .

ـ سأبدل ملابسي وألحق بك ـ قال لها ذلك ، ثم تذكر أنه نسي ساعته على الكوميدينو ، فسألها : ـ كم الساعة الآن ؟

كانت الساعة الخامسة وخمس وعشرون دقيقة . أمسك سنتياغو نصار بذراع كريستو بيدويا وقاده باتجاه الساحة وهو يقول لشقيقتي :

ـ خلال ربع ساعة سأكون في بيتكم .

ألحت عليه بأن يرافقها في الحال لأن الفطور أصبح جاهزاً . وقد أخبرني كريستو بيدويا بأنه «كان إلحاحاً غريباً ، حتى أنني ظننت أحياناً بأن مارغوت كانت على علم بأنهم سيقتلونه وأرادت أن تخبئه في بيتكم» . ومع ذلك ، فقد أقنعها سنتياغو نصار بأن تسبقه ريثما يذهب ليرتدي ملابس ركوب الخيل ، لأنه سيذهب مبكراً إلى مزرعة الديفينو روسترو ليخصي عجولاً . ودعها ملوحاً بيده بالطريقة نفسها التي ودع بها أمه ، وابتعد باتجاه الساحة ممسكاً بذراع كريستو بيدويا . وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي تراه فيها .

كثيرون من أولئك الذين كانوا في الميناء، كانوا يعرفون بأن سنتياغو نصار سيُقتل . فدون لاثارو أبونتي ، الكولونيل المتقاعد براتب جيد وعمدة القرية منذ أكثر من إحدى عشرة سنة ، أشار له بأصابعه محيياً . وقد قال لي فيما بعد : «كانت لدي أسباب واقعية جدا لأعتقد بأنه ليس معرضاً لأي خطر» . والأب كارمن آمادور لم يهتم أيضاً ، وقال لي : «عندما رأيته سالماً معافى ظننت أن الأمر كله لم يكن سوى أكذوبة» . لم يتساءل أي منهم إذا ما كان سنتياغو نصار على علم بالأمر ، فقد بدا لهم جميعاً بأنه من المستحيل ألا يكون قد علم .

الحقيقة أن أختي مارغوت كانت من الأشخاص القلائل الذين كانوا يجهلون بأنه سيُقتل . «لو أنني كنت أعلم ، لاصطحبته إلى بيتنا حتى ولو اضطررت إلى تقييده» ، هذا ما صرحت به للمحقق . وقد كان غريباً ألا تعلم بذلك . ولكن الأكثر غرابة هو أن أمي كذلك لم تكن تعلم ، مع أنها كانت تعرف بكل الأمور قبل جميع من في البيت ، بالرغم من أنها لم تخرج منذ سنوات ، ولا حتى إلى الصلاة . وكنت أقدر هذه الصفة فيها منذ بدأت

أستيقظ مبكراً لأذهب إلى المدرسة . كنت أجدها مثلما كانت في ذلك الحين : داكنة وصامتة ، وهي تكنس الباحة بمكنسة من أغصان الشجر في وهج الصباح الرمادي ، وما بين كل رشفة وأخرى من القهوة كانت تروي لي ما حدث للناس بينما نحن نائمون . كانت تبدو وكأن لها خيوط اتصال سرية مع أهل القرية ، وخصوصاً الذين هم في مثل سنها ، وكانت تفاجئنا أحياناً بأخبار سابقة لوقوعها ما كان لها أن تعرفها إلا بفنون الكهانة . ومع ذلك فإنها لم تشعر في ذلك الصباح بنبض المأساة التي كانت تتكامل منذ الثالثة فجراً . كانت قد انتهت من كنس الباحة ، وعندما خرجت شقيقتي مارغوت لاستقبال المطران وجدتها تطحن اليكة من أجل الفطيرة . «كانت تُسمع أصوات ديكة» ، هكذا اعتادت أمي أن تتذكر ذلك اليوم . ولكنها لم تربط الضجة البعيدة بوصول المطران ، وإنما بآخر آثار حفلة الزفاف .

كان بيتنا بعيداً عن الساحة ، وسط غابة من أشجار المانجا قبالة النهر . وقد ذهبت أختي مارغوت إلى الميناء سائرة بمحاذاة الضفة . كان الناس صاخبين جداً بسبب زيارة المطران مما جعلهم لا يهتمون بالقضايا الأخرى . أضجعوا المرضى أمام الأبواب ليتلقوا العلاج الرباني ، وخرجت النسوة راكضات وهن يحملن الديكة الرومية والخنانيص وجميع أصناف المأكولات ، وأتت من الضفة المقابلة زوارق مزينة بالزهور . ولكن بعد أن مرّ المطران دون أن يترك آثاره على الأرض ، حصل الخبر المقموع على حجمه الصارخ . حينئذ علمت أختي مارغوت بالخبر كاملاً وبطريقة فظة : فالصبية الرائعة أنخيلا فيكاريو ، التي تزوجت في اليوم السابق ، أعيدت إلى بيت والديها ، لأن زوجها وجدها غير عذراء . «أحسست بأنني أنا التي ستموت» ، قالت لي أختي ، ثم تابعت : «ولكن بقدر ما قلبوا الأمر على وجوهه ، فإن أحداً لم يستطع أن يفسر لي كيف تم توريط سنتياغو نصار

المسكين في مكيدة كتلك» . والشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه بكل تأكيد هو أن شقيقيّ أنخيلا فيكاريو ينتظرانه لقتله .

رجعت أختي إلى البيت وهي تمسك نفسها من الداخل عن البكاء . فوجدت والدتي في المطبخ ، مرتدية ثوباً من تلك الثياب المخصصة لأيام الآحاد مزيناً بزهور زرقاء ، ليكون مظهرها لائقاً إذا ما جاء المطران ليسلم علينا . وكانت تغني أغنية الحب اللامرئي وهي تعد المائدة . ولاحظت أختي أن ثمة كرسياً زائداً عن العادة . فقالت لها أمي :

– إنه لسنتياغو نصار . فقد أخبروني بأنك دعوته لتناول الفطور .

فقالت أختي :

– ارفعيه .

وروت لها حينئذ القصة . وقد قالت لي أختي فيما بعد : «لكنها كانت تبدو وكأنها على علم بالأمر . لقد حدث الأمر نفسه الذي يحدث دائماً . فما ان يبدأ أحد بحكاية شيء لها ، وقبل أن تصل الحكاية إلى منتصفها تكون قد عرفت كيف ستنتهي» . وذلك الخبر المشؤوم كان عقدة ملغزة بالنسبة لأمي . لقد اختاروا هذا الاسم لسنتياغو نصار تكريماً لاسمها ، كما أنها كانت عرابته في العماد ، ولكنها كانت كذلك على صلة قرابة دم مع بورا فيكاريو ، والدة العروس المعادة . ومع ذلك ، فما كادت تنتهي من سماع الخبر حتى لبست حذاءها ذا الكعب ووضعت على رأسها طرحة الخروج إلى الكنيسة التي لم تكن تستخدمها في ذلك الحين إلا لزيارات التعزية . خرج والدي ، الذي كان يسمع كل شيء وهو في سريره ، بالبيجاما وسألها مذعوراً إلى أين هي ذاهبة .

فردت عليه :

ـ لأحذر صديقتي بلاثيدا . فليس عدلاً أن يعرف الجميع بأن ابنها سيُقتل وتبقى هي الوحيدة التي لا تعلم .

قال أبي :

ـ إن أواصر كثيرة تربطنا بها كما تربطنا أواصر كثيرة بآل فيكاريو .

فقالت :

ـ يجب أن نكون دائماً إلى جانب الميت .

بدأ أشقائي الصغار بالخروج من الغرف الأخرى . وانفجر الأطفال منهم بالبكاء وقد أحسوا بنفحة المأساة . لم تولهم والدتي اهتماماً للمرة الأولى في حياتها ، كما لم تول اهتماماً لزوجها الذي قال لها :

ـ انتظري ريثما ألبس ثيابي .

ولكنها كانت قد صارت في الشارع . وكان شقيقي خيمي ، الذي لم يكن له من العمر يومئذ أكثر من سبع سنوات ، هو الوحيد الذي يرتدي ملابسه المدرسية .

فأمره أبي :

ـ رافقها أنت .

ركض خيمي وراءها دون أن يدري ما الذي يحدث ودون أن يعرف وجهتها ، وأمسك بيدها ، وقد روى لي خيمي أنها « كانت تحدث نفسها قائلة بصوت منخفض : رجال أشرار ، حيوانات خراء ليسوا بقادرين على عمل شيء سوى المصائب » ، ولم تنتبه حتى إلى أنها تمسك الطفل بيدها .

« لا بد أنهم يظنون بأنني قد جننت » ، هكذا قالت لي فيما بعد ، ثم أردفت : « الشيء الوحيد الذي أتذكره هو أنه كان يُسمع من بعيد صخب أناس كثيرين ، وكأن حفلة الزفاف عادت لتبدأ من جديد ، وكان الجميع يركضون باتجاه الساحة » . أسرعت بخطواتها ، لتؤكد أنها قادرة عندما يتعلق الأمر بحياة إنسان ، إلى أن أشفق عليها شخص كان يركض بالاتجاه المعاكس ، فصرخ بها وهو يمر بجانبها :

ـ لا تزعجي نفسك يا لويسا سنتياغا . لقد قتلاه .

بيادو سان رومان ، الرجل الذي أعاد زوجته ، قدم إلى القرية لأول مرة في شهر آب من السنة السابقة ، قبل حفلة الزفاف بستة شهور . وصل في المركب الأسبوعي ومعه خُرج مزخرف بنقوش فضية متجانسة مع ابزيم الحزام وحلقات الحذاء ذي العنق المرتفع . كان عمره حوالى ثلاثين سنة ، لكنها سنوات مخبأة بصورة جيدة ، فقد كانت له خاصرة نحيلة كخاصرة مصارع عجول ، وعينان ذهبيتان وبشرة مطهوة على نار خفيفة مع الأملاح . أتى وهو يرتدي سترة قصيرة وبنطالاً ضيقاً جداً ، كلاهما من جلد العجل الطبيعي ، وقفازين من جلد الماعز لهما لون السترة والبنطال نفسه . وكانت قد أتت معه على المركب نفسه مجدلينا أوليفير التي لم تستطع أن ترفع نظرها عنه طوال الرحلة . «كان يبدو مخنثاً» ، هكذا قالت لي ، ثم أردفت : «وكان ذلك مؤسفاً ، فهو يغري بدهنه بالزبد وأكله حياً» . ولم تكن هي الوحيدة التي فكرت هكذا ، ولا الأخيرة التي أدركت بأن بياردو سان رومان لم يكن رجلاً يمكن معرفته من النظرة الأولى .

لقد كتبت لي والدتي إلى المدرسة في أواخر شهر آب ، وقالت في ملاحظة عابرة : «حضر إلى البلدة رجل غريب الأطوار» . وفي الرسالة التالية

قالت لي : «اسم الرجل غريب الأطوار بياردو سان رومان ، والجميع هنا يقولون إنه فاتن ، ولكنني لم أره بعد » لم يعرف أحد قط سبب مجيئه . وقد رد على شخص لم يستطع مقاومة وسواس سؤاله قبيل زفافه قائلاً : « إنني أتنقل من قرية إلى أخرى بحثاً عن امرأة أتزوجها » . ربما يكون ذلك صحيحاً ، ولكن كان بإمكانه الرد بأي إجابة أخرى ، فقد كان أسلوبه في الكلام يخدمه في الإخفاء أكثر من التصريح .

في الليلة التي وصل فيها أحاط الناس علماً في السينما بأنه مهندس قطارات ، وتحدث عن الحاجة الماسة لإقامة خط حديدي يصل القرية بالداخل للتفوق على سرعة النهر . وفي اليوم التالي بعث ببرقية ، وقد بثها هو نفسه على جهاز المورس ، كما علّم موظف التلغراف طريقة خاصة ابتدعها بنفسه للاستمرار في استخدام البطاريات الفارغة . وقد تحدث بالتلقائية نفسها عن أمراض المناطق الحدودية مع طبيب عسكري مر بالقرية في تلك الشهور ليقوم بفحص المجندين للخدمة العسكرية . كان يحب الحفلات الطويلة الصاخبة ، لكنه كان شريباً جيداً ، وكان يفصل في الخصومات ويرفض المزاح باستخدام اليد . وفي أحد أيام الآحاد ، بعد الخروج من القداس ، تحدى أمهر السباحين في القرية ، وهم كثر ، وجعل أفضلهم يتخلف عنه عشرين ذراعاً في اجتياز النهر ذهاباً وإياباً . أمي هي التي روت لي ذلك في إحدى رسائلها ، وفي نهاية الرسالة قدمت لي تعليقاً من اكتشافاتها الخاصة جداً يقول : «يبدو أنه يسبح في الذهب أيضاً» . وهذا يفسر الأسطورة المبكرة بأن بياردو سان رومان لم يكن قادراً فقط على عمل أي شيء ، وعلى عمله على أحسن وجه ، وإنما كان يملك كذلك موارد لا تنضب .

ومنحته والدتي مباركتها النهائية في رسالة بعثت بها إلي في شهر تشرين الأول ، قالت فيها : « إن الناس يحبونه كثيراً ، لأنه رجل نزيه وطيبُ القلب ، وقد شارك يوم الأحد الماضي في القربان الرباني وهو جاث على ركبتيه وساعد القسيس في الصلاة باللاتينية » . لم يكن مسموحاً في ذلك الوقت بالمشاركة في القربان الرباني وقوفاً على الأقدام ، وكانت مساعدة القسيس لا تتم إلا باللغة اللاتينية ، ولكن والدتي اعتادت أن تقوم بهذا النوع من التمحيص المتشدد عندما تريد الوصول إلى أعماق الأمور . ومع ذلك ، فقد كتبت إلي رسالتين بعد هذا الحكم التقديسي لم تخبرني فيهما أي شيء عن بياردو سان رومان ، حتى ولا عندما صار معروفاً للجميع بأنه يريد الزواج من أنخيلا فيكاريو . وبعد فترة طويلة من الزفاف المشؤوم ، اعترفت لي بأنها عرفت حقيقته عندما كان الوقت قد فات ولم يعد بمقدورها تصحيح ما ذكرته في رسالة تشرين الأول ، وأن عينيه الذهبيتين سببتا لها اختلاجة فزع . وقالت لي :

ـ لقد بدا لي كالشيطان ، ولكنك أنت نفسك كنت قد قلت لي بأن هذه الأمور لا تقال في الرسائل .

وبعد وقت قصير من تعرفها عليه ، عرفته أنا عندما أتيت في عطلة عيد الميلاد ، ولم أجده غريب الأطوار كما يقولون . بدا لي جذاباً بالفعل ، ولكنه بعيد جداً عن الصورة الغزلية التي رأته بها مجدلينا أوليفير . بدا لي رجلاً جدياً أكثر مما يظنه المرء وهو يرى خفة تصرفاته ، وبه توتر عميق يخفيه برشاقته المفرطة . لكن بدا لي قبل كل شيء أنه رجل حزين . وكان في ذلك الوقت قد حسم أمر ارتباطه الغرامي بأنخيلا فيكاريو .

لم يجزم أحد قط بصورة دقيقة كيف تعارفا . فصاحبة البنسيون الخاص

بالرجال وحدهم ، حيث كان يقيم بياردو سان رومان ، تروي بأنه كان ينام القيلولة على كرسي هزاز في الصالة ، في أواخر شهر أيلول ، عندما اجتازت أنخيلا فيكاريو ووالدتها الساحة وهما تحملان سلتين من الزهور الاصطناعية . فاستيقظ بياردو سان رومان نصف استيقاظ ، ورأى المرأتين اللتين ترتديان ملابس سوداء صارمة وتبدوان كما لو كانتا الكائنين الحيين الوحيدين في خمود الساعة الثانية بعد الظهر ، وسأل عمن تكون الشابة . فأجابته صاحبة البنسيون بأنها الابنة الصغرى للمرأة التي ترافقها ، وأن اسمها أنخيلا فيكاريو . تابعهما بياردو سان رومان بنظره حتى الجانب الآخر من الساحة ، وقال :

ـ إن اسمها مناسب تماماً .

ثم أسند رأسه على مؤخرة الكرسي الهزاز ، وأطبق عينيه من جديد ، وقال :

ـ ذكريني بها عندما أستيقظ ، لأنني سأتزوجها .

وروت لي أنخيلا فيكاريو أن صاحبة البنسيون أخبرتها بالحادثة قبل أن يطارحها بياردو سان رومان الغرام ، وقالت لي : «لقد ذُعرت كثيراً» . وأكد لي ثلاثة أشخاص كانوا في البنسيون بأن الحادثة قد وقعت فعلاً ، بينما لم يؤكد صحتها أربعة آخرون . ولكن كل الروايات تتفق بالمقابل على أن أنخيلا فيكاريو وبياردو سان رومان قد التقيا للمرة الأولى خلال الاحتفالات بالعيد الوطني في شهر تشرين الأول ، وفي مهرجان سوق خيري كانت تقوم هي بإعلان جوائز اليانصيب فيه . أتى بياردو سان رومان إلى السوق واتجه مباشرة نحو الطاولة المخصصة لمعلنة الجوائز النحيلة المتسربلة بملابس الحداد حتى قبضتيها وسألها كم يساوي جهاز الموسيقى المرصع

بالصدف والذي لا بد أنه كان محط الأنظار في المهرجان . فأجابته بأنه ليس للبيع وإنما لإجراء قرعة يانصيب عليه .

فقال :

ـ هذا أفضل . فهكذا سيكون الحصول عليه أسهل ، وأرخص أيضاً .

وقد اعترفت لي بأنه استطاع التأثير عليها ، ولكن لأسباب متعارضة مع الحب . إذا قالت لي وهي تستحضر في ذاكرتها ذلك اليوم : «كنت أمقت الرجال المتعجرفين ، ولم أر في حياتي قط من هو أكثر منه خيلاء ، وقد ظننتُ فوق ذلك أنه بولوني» . وأصبح مقتها له أكبر عندما أعلنت الرقم الفائز بجهاز الموسيقى ، وسط تلهف الجميع ، وفاز به بياردو سان رومان فعلاً . لم يخطر ببالها أنه ، من أجل أن يؤثر عليها فقط ، اشترى كل أوراق اليانصيب .

وعندما رجعت أنخيلا فيكاريو إلى بيتها ليلاً ، وجدت هناك جهاز الموسيقى ملفوفاً بورق هدايا ومزيناً بشريط ملون . وقد قالت لي : «لم أعرف مطلقاً كيف علم بأن ذلك اليوم هو يوم ميلادي» ، وتكلفت جهداً كبيراً في إقناع والديها بأنها لم تعط أي مبرر لبياردو سان رومان يجعله يبعث إليها بهدية كتلك ، خصوصاً وأنه فعل ذلك بطريقة مكشوفة لم يغفل عنها أحد . وهكذا حمل شقيقاها الكبيران ، بيدرو وبابلو ، جهاز الموسيقى إلى الفندق ليعيداه إلى صاحبه ، وقد فعلا ذلك بصخب كبير بحيث لم يبق أحد رأى الهدية وهي تأتي إلا ورآها وهي تعود . والشيء الوحيد الذي لم تأخذه الأسرة في الحسبان هو محاسن بياردو سان رومان التي لا تقاوم . ذلك أن التوأمين لم يعودا إلى الظهور حتى صباح اليوم التالي ، وكانا مخمورين تماماً ، ويحملان معهما جهاز الموسيقى من

جديد ، وقد رافقهما أيضاً بياردو سان رومان ليتابعوا الحفلة معاً في البيت .

كانت أنخيلا فيكاريو هي الابنة الصغرى لعائلة محدودة الموارد . فوالدها ، بونثيو فيكاريو ، كان صائغاً فقيراً ، وقد فقد بصره وهو ينمنم الذهب ليحافظ على شرف البيت . ووالدتها بوريسيما دل كارمن ، عملت كمعلمة مدرسة إلى أن تزوجت زواجاً لا فراق بعده . وقد كان مظهرها الوديع والحزين يخفي فظاظة طباعها . «لقد كانت تبدو كراهبة» ، هكذا تتذكرها ميرثيدس . وقد كرست نفسها ، بروح عالية من التضحية ، للعناية بزوجها وتربية أبنائها ، حتى أن المرء كان ينسى أحياناً أنها ما تزال على قيد الحياة . لقد تزوجت ابنتاها الكبيرتان متأخرتين . وكانت قد أنجبت ، إضافة إلى التوأمين ، ابنة وسطى ماتت بالحمى القرمزية ، وبعد مرور سنتين على موتها كانوا يحافظون على جو خفيف من الحداد داخل البيت ولكن ذلك الحداد كان صارماً عند خروجهم إلى الشارع . تلقى التوأمان تربية تجعل منهما رجلين . وتربت الأخوات للزواج . فكن يعرفن فنون التطريز على النول ، والخياطة على الماكينة ، وحياكة الدنتيلا على المغزل ، وغسل الملابس وكيها ، وصنع الزهور الاصطناعية والحلوى وتحرير بطاقات المناسبات . وخلافاً لفتيات تلك الحقبة اللواتي أهملن طقوس توقير الموتى ، كانت بنات الأسرة الأربع معلمات في العلم القديم المختص بالسهر على المرضى ، وتشجيع المحتضرين وتكفين الموتى .والشيء الوحيد الذي كانت والدتي تؤنبهن عليه هو تسريح شعورهن قبل النوم ، فكانت تقول لهن : «لا تسرحن شعوركن في الليل يا بنات ، لأن ذلك سيؤخر قدوم البحارة» . وباستثناء هذا الأمر ، كانت تفكر بأنه لا وجود لبنات أفضل منهن تربية . وكنت أسمعها تقول باستمرار : «إنهن كاملات . وأي رجل سيكون سعيداً

معهن ، لأنهن تربين ليتألمن» . ومع ذلك ، كان صعباً على الرجلين اللذين تزوجا الكبيرتين تحطيم الحصار ، لأنهما كانتا معاً دائماً وفي كل مكان ، وكانتا تنظمان حفلات رقص للنساء فقط وتعدان مسبقاً للعثور على نوايا أخرى خفية في كل عمل يقوم به الرجال .

كانت أنخيلا فيكاريو هي الأكثر جمالاً بين البنات الأربع ، وتقول أمي إنها ولدت والحبل السري ملفوف حول عنقها مثل ملكات التاريخ العظيمات . ولكن كانت بها نفحة من الخذلان ، وفقر روحي يبشر بمستقبل غير مضمون . وكنت أراها سنة بعد أخرى ، خلال إجازاتي المدرسية في عطلة أعياد الميلاد ، وفي كل مرة كانت تبدو أكثر بؤساً وهي وراء نافذة منزلها ، حيث كانت تجلس في الأمسيات لتصنع زهوراً من قصاصات القماش وتغني أغاني العازبات مع جاراتها . وكان سنتياغو نصار يقول لي : «ها هي ابنة خالتك الحمقاء ، إنها تنفع لتعلق على سلك» . وفجأة ، قبيل الحداد على أختها بقليل ، التقيت بها في الشارع للمرة الأولى ، كانت تلبس كامرأة ، ولها شعر متموج ، ولا يستطيع المرء الاقتناع بأنها هي نفسها إلا بصعوبة . ولكنها كانت رؤيا سريعة عابرة : فبؤسها الروحي كان يتفاقم مع مرور السنوات ، حتى أن كثيرين فكروا ، عندما انتشر نبأ رغبة بياردو سان رومان في الزواج منها ، بأن ذلك الزواج غدرٌ بالغريب .

لم تأخذ الأسرة ذلك الأمر مأخذ الجد وحسب ، وإنما أيضا بغبطة بالغة . باستثناء بورا فيكاريو التي اشترطت أن يفصح بياردو سان رومان عن هويته . وحتى ذلك الحين لم يكن أحد يعرف من يكون . لم يكن ماضيه ليصل إلى أبعد من المساء الذي نزل فيه إلى القرية بملابسه التي كملابس الفنانين ، وكان شديد التحفظ حول أصله لدرجة أن أكثر الروايات عتهاً

يمكن أن تكون صحيحة . فقد قيل إنه دمر ضياعاً وزرع الرعب في كاساناري كقائد لفيلق عسكري ، وقيل إنه فار من الخدمة العسكرية في كايينا ، وإن هناك من رآه في بيرنا مبوكو وهو يمضي مع زوج من الدببة المروضة ، أو أنه استخرج بقايا سفينة إسبانية محملة بالذهب غرقت في قنال لوس بينتوس . وقد وضع بياردو سان رومان حداً لكل تلك التكهنات بطريقة بسيطة : أحضر أفراد عائلته كلهم .

كانوا أربعة : الأب ، والأم ، وشقيقتان هانجتان . وصلوا في سيارة فورد-ت عليها لوحة رسمية ، أثار نفيرها الذي كصوت البط ، جلبة في الشوارع في الساعة الحادية عشرة صباحاً . وكانت الأم ، ألبيرتا سموندس ، امرأة خلاسية ضخمة من كوراساو مازالت تتكلم الإسبانية مطعمة بلهجة البابيامينتو ، كانت قد اختيرت في شبابها كأجمل فتاة بين مائتين من أجمل جميلات الأنتيل . أما الشقيقتان المتفتحتان لتوهما ، فتبدوان وكأنهما مهرتان جامحتان . ولكن الورقة الكبرى تمثلت في الأب : الجنرال بيترونيو سان رومان ، بطل الحروب الأهلية في القرن الماضي ، ومجد كبير من أمجاد النظام المحافظ لأنه مكّن الكولونيل أوريليانو بوينديا من الهرب أثناء نكبة توكورينكا . وكانت أمي هي الوحيدة التي لم تخرج لمصافحته عندما عرفت من يكون . فقد قالت لي : « يبدو لي أن زواجهما أمر حسن . ولكن هذا شيء ، ومد اليد لمصافحة رجل أعطى الأمر بإطلاق النار على ظهر خيرينيلدو ماركيز شيء آخر مختلف » . ومذ أطل من نافذة السيارة ملوحاً بقبعته البيضاء ، عرفه الجميع من الشهرة التي كانت لصوره . كان يرتدي بدلة من الكتان لونها بلون القمح ، وجزمة من جلد الماعز رباطها مشدود بشكل متقاطع ، ويضع نظارة إطارها من الذهب مزينة بزخارف فوق الأنف ومشبتة بحلقة في عروة الصدرية . وكان يعلق وسام

الشجاعة على طية صدر السترة ويحمل في يده عصا في طرفها كرة منحوت عليها الشعار الوطني . كان هو أول من نزل من السيارة معفراً تماماً بالغبار الملتهب الذي تثيره دروبنا السيئة ، وكان ظهوره في مقعد السائق كافياً لكي يتأكد الجميع من أن بياردو سان رومان سيتزوج ممن يشاء .

أنخيلا فيكاريو هي التي لم تكن تريد الزواج منه . فقد قالت لي : « كان يبدو مفرطاً في الرجولة بالنسبة لي » . أضف إلى ذلك أن بياردو سان رومان لم يحاول التودد إليها مطلقاً ، وإنما سحر الأسرة بمحاسنه . ولم تنس أنخيلا فيكاريو هول الليلة التي اجتمع فيها والدها وشقيقتاها الكبيرتان مع زوجيهما في صالة البيت ، وفرضوا عليها بالإكراه الزواج من رجل لم تكد تراه . شقيقاها التوأمان بقيا جانباً . « لقد رأينا أن تلك المهمة من اختصاص النساء » هذا ما قاله لي بابلو فيكاريو . والحجة الحاسمة التي أبداها الأبوان هي أن أسرة محترمة ومتواضعة الحال ليس لها الحق بأن تزدري تلك الهبة التي بعث بها القدر . وتجرأت أنخيلا فيكاريو بصعوبة ولمحت إلى عدم وجود الحب كعائق أمام الزواج ، ولكن والدتها محقت تلك الأفكار بعبارة واحدة :

- والحب أيضاً يمكن تعلمه .

وخلافاً لكل خطوبات تلك الحقبة ، التي كانت طويلة وخاضعة للمراقبة ، لم تستمر خطوبتهما إلا لمدة أربعة أشهر فقط بسبب استعجال بياردو سان رومان . ولم يكن ممكناً جعل مدة الخطوبة أقصر لأن بورا فيكاريو أصرت على الانتظار إلى أن ينتهي حداد الأسرة . وقد انتهت تلك الفترة دون أي منغصات بسبب طريقة بياردو سان رومان التي لا تقاوم في ترتيب الأمور . وقد روت لي أنخيلا فيكاريو قائلة : « في إحدى الليالي

سألني أي البيوت يعجبني أكثر من سواه . وأجبته ، دون أن أعرف سبب سؤاله ، بأن أجمل بيت في القرية هو بيت الأرمل شيوس » . ولو أنني سُئلت أنا نفسي لكان جوابي هو هذا الجواب نفسه . فالبيت كان يقوم على ربوة تكنسها الريح ، ومن فوق شرفته يمكن رؤية الجنة غير المحدودة من البرك المغطاة بالطحالب البنفسجية ، وفي أيام الصيف الصافية يمكن رؤية أفق الكاريبي الناصع ، وعابرات المحيطات السياحية الضخمة في كارتاخينا دي اندياس . وفي تلك الليلة بالذات مضى بياردو سان رومان إلى النادي الاجتماعي وجلس إلى طاولة الأرمل شيوس ليلعب معه دور دومينو .

قال له :

ـ إنني أشتري بيتك أيها الأرمل .

فقال الأرمل :

ـ البيت ليس معروضاً للبيع .

ـ سأشتريه منك بكل محتوياته .

وشرح له الأرمل شيوس ، بتربيته الحميدة على الطريقة القديمة ، بأن أغراض البيت قد اشترتها زوجته طوال حياة كاملة من التضحية ، وأن هذه الأغراض ما تزال بالنسبة إليه جزءاً منها . وقد قال لي الدكتور ديونيسيو إغواران الذي كان يلعب معهما : «لقد كان يتكلم وروحه على كفه . وكنت متأكداً من أنه يفضل الموت قبل أن يبيع البيت الذي عاش فيه بسعادة لأكثر من ثلاثين سنة» . وتفهم بياردو سان رومان أيضاً ظروفه . فقال :

ـ إنني متفق معك . بعني إذن البيت فارغاً .

ولكن الأرمل أصر على الرفض حتى نهاية دور الدومينو . وبعد ثلاث ليال رجع بياردو سان رومان إلى طاولة الدومينو وقد هيأ نفسه بصورة أفضل .

وبدأ من جديد :

ـ كم يبلغ ثمن البيت أيها الأرمل ؟

ـ ليس له ثمن .

ـ قل أي مبلغ يخطر لك .

فقال العجوز :

ـ متأسف يا بياردو ، ولكنكم معشر الشباب لا تدركون مبررات القلب .

لم يتوقف بياردو سان رومان برهة واحدة ليفكر ، بل قال :

ـ فلنقل خمسة آلاف بيزو .

فرد عليه الأرمل وقد استثيرت كرامته :

ـ ليكن لعبك نظيفاً . فالبيت لا يساوي مبلغاً كبيراً كهذا .

وقال بياردو سان رومان :

ـ عشرة آلاف . أدفعها لك الآن عداً ونقداً .

تطلع إليه الأرمل بعينين ممتلئتين بالدموع . «لقد كان يبكي من الغيظ» ، هذا ما قاله لي الدكتور ديونيسيو إغواران الذي كان رجل آداب بالإضافة إلى كونه طبيباً ، ثم أضاف : «تصور... مبلغاً كبيراً كهذا في متناول

اليد ، ويكون عليك أن تقول لا بسبب وهن روحي بسيط» . لم يخرج صوت الأرمل شيوس ، لكنه رفض دون تردد بهز رأسه .

فقال بياردو سان رومان :

ـ اعمل لي معروفاً أخيراً إذن ، وانتظرني هنا خمس دقائق فقط .

وبعد مرور خمس دقائق ، رجع فعلاً إلى النادي الاجتماعي حاملاً الخرج المزركش بالفضة ، ووضع فوق الطاولة عشر رزم من الأوراق النقدية كل رزمة منها بألف بيزو وهي ما تزال مربوطة بالشرائط الورقية المختومة في بنك الدولة . لقد مات الأمل شيوس بعد شهرين من ذلك ، وكان الدكتور ديونيسيو إغواران يقول : «لقد مات بتلك . فقد كان قبلها سليماً أكثر منا ، وعند فحصه بالسماعة كنت أسمع فوران الدموع في قلبه» . فهو لم يبع البيت بكل محتوياته وحسب ، وإنما طلب من بياردو سان رومان أن يدفع له المبلغ شيئاً فشيئاً لأنه لم يعد لديه كذكرى ولو صندوق واحد يضع فيه ذلك المبلغ الكبير من المال .

لم يخطر ببال أحد ، ولم يقل أحد ، بأن أنخيلا فيكاريو لم تكن عذراء . فلم يُعرف أن لها علاقة حب سابقة ، وكانت قد ترعرعت مع شقيقاتها تحت مراقبة صارمة من أم حديدية . وحتى عندما لم يبق سوى شهرين لزواجها ، لم تسمح لها بورا فيكاريو بالذهاب وحدها مع بياردو سان رومان لترى البيت الذي سيعيشان فيه ، وإنما رافقتها هي ووالدها الضرير صوناً لعفتها . «الشيء الوحيد الذي كنت أرجوه من الله هو أن يمنحني الشجاعة لأقتل نفسي» ، هذا ما قالته لي أنخيلا فيكاريو ، ثم أردفت : «ولكنه لم يمنحني ذلك» . لقد كانت قلقة لدرجة أنها وطدت عزمها على إخبار أمها بالحقيقة لتتحرر من ذلك الزواج ، عندما صرفتها عن

تلك النية الطيبة صديقتاها المقربتان الوحيدتان اللتان كانتا تساعدانها في صنع الأزهار القماشية بجانب النافذة . وقالت لي : «لقد أطعتهما كعمياء لأنهما جعلتاني أقتنع بأنهما خبيرتان في خداع الرجال» . أكدتا لها بأن جميع النساء تقريباً يفقدن بكارتهن في حوادث الطفولة . وأصرتا عليها بأن أكثر الرجال تشدداً يتسامحون في كل شيء طالما أن أحداً لم يعلم بهذه الأمور . وأقنعتاها أخيراً بأن أغلب الرجال يأتون في ليلة الزفاف مرتعبين ، ويكونون عاجزين عن عمل أي شيء دون مساعدة المرأة ، وفي لحظة الجد لا يستطيعون تحمل مسؤولية أعمالهم بالذات . «والشيء الوحيد الذي يؤمنون به هو ما يرونه على ملاءة السرير» ، هذا ما قالتاه لها . وعلمتاها حيلة من حيل القوادات لتتكلف إظهار عذريتها المفقودة ، ولتستطيع أن تنشر تحت الشمس ، في فناء البيت ، الملاءة الكتانية وعليها لطخة الشرف ، في صباح اليوم التالي لزفافها .

وقد تزوجت على هذا الأمل . ولا بد أن بياردو سان رومان من جهته ، قد تزوج على أمل شراء السعادة بثقل سلطته وثروته الهائلتين ، فكلما تضخمت خطط حفلة العرس كانت تخطر له أفكار جنونية لجعلها أضخم . وحاول تأجيل العرس يوماً عندما أعلن عن زيارة المطران ، لكي يباركهما بنفسه ، ولكن أنخيلا فيكاريو اعترضت ، وقد قالت لي فيما بعد : «الحقيقة أنني لم أشأ أن يباركني رجل يقطع أعراف الديوك فقط لعمل الحساء ويلقي بما تبقى من الديكة إلى القمامة» . ومع ذلك ، وبدون مباركة المطران ، اكتسبت الحفلة قوة ذاتية من الصعب التحكم بها ، حتى أن الأمر خرج من يد بياردو سان رومان نفسه وأصبح حدثاً عاماً .

أتى الجنرال بيترونيو سان رومان وأسرته هذه المرة في سفينة المراسم

التابعة للكونغرس الوطني ، والتي بقيت راسية في الميناء حتى نهاية الحفلة ، وحضر معهم عدد كبير من الشخصيات اللامعة التي لم يلتفت أحد لوجودها وسط فوضى الوجوه الجديدة . وحملوا معهم الكثير من الهدايا ، مما استوجب ترميم الطابق الأول من مبنى محطة توليد الكهرباء المهمل لعرض أكثر الهدايا غرابة فيه ، أما باقي الهدايا فنقلت مباشرة إلى بيت الأرمل شيوس القديم الذي كان جاهزاً لاستقبال العروسين . وقد أهدوا إلى العريس سيارة متحركة الغطاء سُكب عليها اسمه بحروف قوطية تحت شعار الشركة الصانعة . وأهدوا إلى العروس طقم أدوات مائدة من الذهب الخالص لأربعة وعشرين مدعواً . وأحضروا معهم كذلك فرقة استعراضية راقصة ، وفرقتين تعزفان موسيقى الفالس إلى جانب الفرق الموسيقية المحلية وجماعات عازفي الأوكورديونات الذين قَدِموا بصخب بعد أن سمعوا ضجة الحفلة .

كانت عائلة فيكاريو تعيش في بيت متواضع ، جدرانه من القرميد وسقفه من سعف النخيل ، تعلوه عليّة من مقصورتين حيث تعشش طيور السنونو للتفريخ في شهر كانون الثاني . وقبالة البيت توجد شرفة ممتلئة بكاملها تقريباً بأصص الزهور ، وباحة فسيحة فيها دجاجات طليقة وأشجار مثمرة . وفي أقصى الفناء ، أقام التوأمان حظيرة للخنازير ، وصخرة للذبح وطاولة لتقطيع اللحم ، وكان عملهما هذا مصدراً جيداً لتأمين الحاجات المنزلية منذ فقد بونثيو فيكاريو بصره . وكان بيدرو فيكاريو هو الذي بدأ هذا العمل ، وعندما ذهب إلى الخدمة العسكرية ، تعلم شقيقه التوأم أيضاً مهنة ذبح الخنازير .

كان البيت من الداخل لا يكاد يتسع للمعيشة . ولهذا حاولت

الشقيقتان الكبيرتان استعارة أحد البيوت عندما أدركن حجم الحفلة ، وقد قالت لي أنخيلا فيكاريو : «تصور ، لقد فكرتا باستعارة بيت بلاثيدا لينيرو . ولكن والديّ أصرا لحسن الحظ على رأيهما بأنه ما دامت لديهما بنات يتزوجن فإن ذلك سيكون في حظيرة الخنازير الخاصة بنا ، أو أنهن لن يتزوجن» . وهكذا دهنوا البيت بلون أصفر أصلي ، وأصلحوا الأبواب والأرضية ، وجعلوا البيت لائقاً ما أمكن لحفلة زفاف بمثل ذلك الحجم من الصخب . ونقل التوأمان الخنازير إلى مكان آخر وطهرا الفضلات بكلس حي ، وعلى الرغم من كل ذلك ، كان يبدو أن المكان لن يتسع . أخيراً ، وبتوجيه من بيباردو سان رومان ، هدموا سور الباحة ، وطلبوا استعارة البيوت المجاورة لعقد حلقات الرقص فيها ووضعوا طاولات نجارين ليجلس الناس للأكل تحت أشجار التمر الهندي الوارفة .

القلق الوحيد غير المتوقع هو الذي سببه العريس في صباح يوم العرس ، عندما حضر متأخراً ساعتين لاصطحاب أنخيلا فيكاريو التي رفضت أن ترتدي ملابس الزفاف ما دامت لا تراه في البيت . وقد قالت لي : «تصور ، كنت سأشعر بالسعادة لو أنه لم يأت ، ولكن لم أكن لأسمح له أبداً بأن يتركني ويختفي وأنا بملابس الزفاف» . ويبدو أن حذرها كان طبيعياً ، لأنه ليس هناك محنة عامة تسبب عاراً للمرأة أكثر من بقائها وحيدة وهي بملابس الزفاف . وبالمقابل ، فإن تجرؤ أنخيلا فيكاريو على وضع الطرحة وأكليل الزهور دون أن تكون عذراء ، سيُناقش ويصنف فيما بعد على أنه تدنيس لرموز الطهارة . وكانت أمي هي الوحيدة التي قيمت ذلك التصرف بأنه شجاعة ، فالفتاة لعبت بأوراقها المكشوفة حتى النهاية ، وقد فسرت أمي لي الأمر : «لقد كان الله يتفهم هذه الأمور في ذلك الزمن» . وعلى العكس من ذلك ، فإن أحداً لم يعرف بأي أوراق لعب بيباردو سان رومان . فمنذ

ظهوره أخيراً ببدلة رسمية وقبعة تشريفات ، إلى أن هرب من حلقة الرقص مع فتاة أحلامه المعذبة ، كان صورة كاملة للعريس السعيد .

ولم يعرف أحد بأية أوراق لعب سنتياغو نصار . أنا كنت معه طوال الوقت ، في الكنيسة وفي الحفلة ، وكان معنا أيضاً كريستو بيدويا وشقيقي لويس إنريكي ، ولم يلحظ أحد منا أي تغير طفيف عليه . لقد كررت هذا مرات عديدة ، فأربعتنا ترعرعنا معاً في المدرسة ثم في العصبة نفسها خلال الإجازات المدرسية ، ولم يكن أحد يصدق بأن لدينا سراً لا نتقاسمه ، وخصوصاً إذا كان السر كبيراً مثل ذاك .

كان سنتياغو نصار رجل حفلات ، وقد حصل على بهجته الكبرى في اليوم الذي سبق موته وهو يحسب تكاليف حفلة الزفاف . قدر ونحن في الكنيسة بأنهم قد وضعوا زهوراً تزيينية قيمتها تساوي ما يوضع في أربع عشرة جنازة من الدرجة الأولى . إن هذا التحديد الدقيق سيلاحقني طوال سنوات عديدة ، فكثيراً ما قال لي سنتياغو نصار إن رائحة الزهور الحبيسة تذكره على الفور بالموت ، وفي ذلك اليوم كرر لي ذلك ونحن ندخل المعبد . «لا أريد زهوراً في جنازتي» ، هكذا قال لي ، دون أن يفكر بأنني سأهتم في اليوم التالي بألا يكون لها وجود . وفي الطريق من الكنيسة إلى بيت آل فيكاريو حسب قيمة الأكاليل الملونة التي زينوا بها الشوارع ، وحسب أيضاً تكاليف الموسيقى وثمن الألعاب النارية ، بل إنه حسب ثمن وابل الرز النيئ الذي استقبلونا به في الحفلة . وفي هدأة الظهيرة قام العروسان بجولة في الباحة . كان بياردو سان رومان قد أصبح صديقاً حميماً لنا ، صديق كأس كما كان يقال في ذلك الحين ، وكان يبدو عليه الشعور بالراحة على طاولتنا . أما أنخيلا فيكاريو التي كانت بدون الطرحة

والإكليل ، ترتدي ثوباً من الأطلس مبللاً بالعرق ، فقد أطلت فجأة بوجه امرأة متزوجة . كان سنتياغو نصار يحسب ، وقال لبياردو سان رومان إن الحفلة قد كلفت حتى تلك اللحظة حوالى تسعة آلاف بيزو . وبدا واضحاً أن أنخيلا نظرت إلى ذلك على أنه وقاحة . وقد قالت لي فيما بعد : «لقد علمتني أمي ألا أتكلم أبداً عن المال أمام الناس الآخرين» . وعلى العكس منها كان بياردو سان رومان الذي أخذ الأمر بأريحية ، بل وببعض التبجح ، وقال :

ـ تقريباً ، ولكننا لم نكد نبدأ بعد . سيكون المبلغ في النهاية ضعف هذا الرقم تقريباً .

استعد سنتياغو نصار للتأكد من ذلك حتى آخر سنتافو ، وكانت حياته كافية لذلك بالضبط . فالأرقام الأخيرة التي أعطاه إياها كريستو بيدويا في اليوم التالي في الميناء ، قبل موته بخمس وأربعين دقيقة ، أكدت بأن تقديرات بياردو سان رومان كانت دقيقة .

كنت أحتفظ بذكرى مشوشة عن الحفلة قبل أن أقرر استعادتها مفتتة من ذاكرة الآخرين . فقد دار الحديث في بيتنا طوال سنوات عديدة عن أن أبي عاد ليعزف على الكمان الذي كان يعزف عليه في شبابه ، تكريماً للعروسين ، وأن شقيقتي الراهبة رقصت رقصة ميرينغي بمهارتها كراهبة ، وأن الدكتور ديونيسيو إغواران ، وهو ابن عم لأمي ، استطاع جعلهم يأخذونه في المركب الرسمي حتى لا يكون هناك في اليوم التالي عندما يحضر المطران . وخلال الاستقصاء الذي قمت به من أجل هذه القصة استعدت عدة أحداث هامشية جرت لي ، منها ذكرى طرافة شقيقتيَّ بياردو سان رومان ، بملابسهما المخملية التي لها أجنحة كبيرة كأجنحة

الفراشات ، مزينة بتموجات ذهبية من الخلف ، لفتت الانتباه إليهما أكثر من القنزعة الريشية ودرع الأوسمة الحربية التي كان يضعها أبوهنّ . وكثيرون كانوا يعرفون بأنني في حالة اللاوعي التي كنتُ بها في الحفلة عرضتُ الزواج على ميرثيدس بارتشا ، في الوقت الذي كنت قد أنهيت فيه الدراسة الابتدائية منذ مدة وجيزة وهذا ما ذكرتني به هي نفسها عندما تزوجنا بعد مرور أربعة عشر عاماً . الصورة المكثفة التي احتفظتُ بها دائماً في ذاكرتي من يوم الأحد ذاك هي صورة العجوز بونثيو فيكاريو الضرير وهو يجلس وحيداً على كرسيه الذي بلا مسند في وسط الباحة . ربما وضعوه هناك وهم يظنون بأنه مكان الشرف ، وكان المدعوون يصطدمون به ، ويخطئون من هو ، ويغيرون مكانه حتى لا يعرقل الحركة ، بينما هو يحرك رأسه المكلل بالبياض في جميع الاتجاهات وعلى وجهه ملامح الحيرة كأعمى حديث العمى ، مجيباً على أسئلة ليست موجهة إليه ، ورادّاً تحيات شاردة لم يحيه أحد بها ، سعيداً في حصاره المنسي ، وهو يرتدي قميصاً متصلباً بالنشاء ، ويحمل عكازاً من خشب أشجار الغواياكا اشتروه له خصيصاً للحفلة .

انتهى الحفل الرسمي في الساعة السادسة مساء عندما نهض ضيوف الشرف مودعين . ومضى المركب مضيئاً أنواره وتاركاً وراءه بقايا ألحان فالس كانت تنطلق من البيانو الأوتوماتيكي ، ووقفنا للحظة بينما المركب ينساق فوق هاوية من الريبة ، إلى أن عدنا لنتعرف على بعضنا البعض وانغمسنا في الحفلة من جديد . ظهر العروسان بعد قليل في السيارة المكشوفة ، وهما يشقان طريقهما بين الحشد بصعوبة . أطلق بياردو سان رومان ألعاباً نارية ، وشرب خمراً من الزجاجات التي كان الحشد يقدمها إليه ، ثم نزل من السيارة مع أنخيلا فيكاريو ليدخل في حلقة رقص «الكومبيامبا» . وأخيراً أمر بأن نتابع الرقص على حسابه إلى حين نشاء ،

وأخذ زوجته المرتعبة إلى بيت أحلامهما حيث عاش الأرمل شيوس سعيداً .

الحفلة العامة تفرقت إلى جماعات عديدة في حوالى منتصف الليل ، ولم يبق مفتوحاً سوى دكان كلوتيلدي أرمينتا في أحد جوانب الساحة . أنا وسنتياغو نصار ومعنا شقيقي لويس إنريكي وكريستو بيدويا ، مضينا إلى بيت المتعة الذي تملكه ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس . ومن هناك مرّ كثيرون من بينهم الأخوان فيكاريو اللذان شربا معنا وغنيا مع سنتياغو نصار قبل أن يقتلاه بخمس ساعات . لا بد أنه ما تزال بضع جذوات متفرقة من الحفلة الأصلية ، إذ أن دفقات الموسيقى النائية كانت تصلنا من كل الأنحاء ، واستمرت في الوصول ، أكثر حزناً في كل مرة ، إلى ما قبل صفير مركب المطران بقليل .

روت بورا فيكاريو لوالدتي بأنها قد رقدت في الساعة الحادية عشرة ليلاً بعد أن ساعدتها ابنتاها الكبيرتان على إجراء بعض الترتيب للفوضى التي خلفتها حفلة العرس . وفي حوالى العاشرة ، عندما كان بعض السكارى ما يزالون يغنون في الباحة ، بعثت أنخيلا فيكاريو تطلب حقيبة صغيرة تحتوي بعض الأغراض الشخصية كانت موجودة في خزانة غرفة النوم ، وقد أرادت هي أن تبعث إليها كذلك بحقيبة تضع فيها بعض الملابس اليومية ، ولكن الرسول كان مستعجلاً . وعندما قُرع الباب ، كانت قد نامت بعمق . «ثلاث طرقات خفيفة جداً ـ هكذا قالت لوالدتي ـ ، لكنها تحمل ذلك الوقع الغريب الذي يشير إلى الأحداث المشؤومة» . وروت لها بأنها فتحت الباب دون أن تضيء النور حتى لا توقظ أحداً ، ورأت بياردو سان رومان في البريق المنبعث من مصباح الشارع وهو يرتدي قميصاً من الحرير محلول الأزرار وبنطالاً رقيقاً مثبتاً بحمالات مطاطية . «كان أخضر بلون الأحلام» ،

هكذا قالت بورا فيكاريو لأمي . أما أنخيلا فيكاريو فكانت في العتمة ، أي أن أمها لم ترها إلا عندما أمسكها بياردو سان رومان من ذراعها ووضعها في الضوء . كان ثوبها الذي من الأطلس ممزقاً ، وكانت ملفوفة حتى خصرها بمنشفة . ظنت بورا فيكاريو بأن السيارة قد تدهورت بهما وأنهما ميتان في أعماق العالم الآخر ، فقالت مرتعدة :

ـ يا مريم الطاهرة . أجيبا إذا كنتما ما تزالان من هذا العالم .

لم يدخل بياردو سان رومان ، وإنما دفع زوجته إلى داخل البيت برفق ، دون أن يفوه بكلمة . ثم قبل وجنة بورا فيكاريو وكلمها بصوت عميق الكآبة ولكنه رقيق جداً :

ـ شكراً على كل شيء يا أماه . أنت قديسة .

بورا فيكاريو هي وحدها التي عرفت ما فعلته في الساعتين التاليتين ، وقد مضت إلى القبر مع سرها . «الشيء الوحيد الذي أذكره هو أنها أمسكتني من شعري بإحدى يديها وراحت تضربني باليد الأخرى بغضب شديد حتى ظننت بأنها ستقتلني» ، هذا ما روته لي أنخيلا فيكاريو . وحتى هذا العمل قامت به بصمت كبير ، لدرجة أن زوجها وابنتيها الكبيرتين الذين كانوا ينامون في الغرف الأخرى لم يعلموا بشيء حتى الفجر عندما كانت الكارثة قد اكتملت .

رجع التوأمان إلى البيت قبل الساعة الثالثة بقليل ، بعد أن بعثت أمهما بطلبهما لأمر مستعجل . ووجدوا أنخيلا فيكاريو منبطحة على الأريكة في غرفة الطعام ، ووجهها مغطى بآثار الصفعات ، لكنها كانت قد توقفت عن البكاء . وقد قالت لي : «ما عدت أشعر بالذعر حينئذ ، بل على العكس : أحسست وكأنني قد انتزعت الكابوس عن كاهلي أخيراً ، والأمر الوحيد

الذي كنت أريده هو أن ينتهي كل شيء بسرعة لكي أنام» . رفعها بيدرو فيكاريو ، الأكثر حزماً بين الشقيقين ، من خاصرتها وأجلسها إلى مائدة المطبخ ، ثم قال لها وهو يرتجف غيظاً :

ـ هيا أيتها البنت . أخبرينا من هو .

تماطلتْ لوقت لا يكاد يكفي لذكر الاسم . بحثت عنه في العتمة ووجدته من النظرة الأولى إلى الأسماء الكثيرة الكثيرة المختلطة في هذا العالم وفي العالم الآخر ، وتركته مثبتاً على الجدار بسهمها المحكم مثل فراشة لا خيار لها ومصيرها مكتوب منذ الأزل .

قالت :

ـ سنتياغو نصار .

أيد المحامي نظرية القتل كوسيلة مشروعة للدفاع عن الشرف ، ووافقت عليها كذلك هيئة المحلفين ، وأعلن التوأمان في نهاية المحاكمة بأنهما مستعدان لفعل ذلك ألف مرة إذا ما توفرت الدوافع نفسها . وهما اللذان لمحا هذا الاحتياطي في الدفاع منذ استسلما أمام الكنيسة بعد لحظات قليلة من الجريمة ، فقد اقتحما بيت الراهب وهما يلهثان ، تتبعهما عن قرب جماعة من العرب الهائجين ، ووضعا السكينين نظيفتي النصل على طاولة الأب آمادور . كلاهما كان منهوكاً بعد عملية القتل الهمجية ، وكانت ملابسهما وأيديهما مبللة ووجهيهما ملطخين بالعرق والدم الذي مازال ساخناً ، ولكن الكاهن تذكر عملية الاستسلام على أنها وقار عظيم .

قال له بيدرو فيكاريو :

ـ لقد قتلناه ونحن بكامل وعينا . ولكننا بريئان .

فقال الأب آمادور :

ـ ربما أنتما كذلك أمام الله .

ورد بابلو فيكاريو :

ـ بل أمام الله وأمام الناس . فقد كانت مسألة شرف .

أكثر من ذلك : عندما قاما بتمثيل الجريمة أظهرا شراسة أشد بكثير مما فعلا في الواقع ، مما استوجب إصلاح البوابة الرئيسية لبيت بلائيدا لينيرو من الأموال العامة ، ذلك أنها تشققت تماماً بضربات السكاكين . وفي سجن ريوهاتشا ، حيث بقيا ثلاث سنوات بانتظار المحاكمة لأنهما لا يملكان ما يدفعانه ككفالة إخلاء سبيل ، يتذكرهما أقدم السجناء بمظهرهما الطيب ومزاجهما الاجتماعي ، ولكنهم لم يلحظوا عليهما مطلقاً أي شعور بالندم . ومع كل ذلك ، فالحقيقة كما يبدو هي أن الأخوين فيكاريو لم يفعلا شيئاً مما ينبغي فعله لقتل سنتياغو نصار في الحال ودون استعراض عام ، وإنما فعلا بالمقابل أكثر مما يمكن للعقل أن يتصوره بكثير من أجل أن يأتي أحد ويمنعهما من قتله ، ولم يحصلا على ذلك .

وحسب ما قالاه لي بعد سنوات عديدة ، فإنهما بدءا البحث عنه في بيت ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس ، حيث كانا معه هناك حتى الساعة الثانية . ولم يكن هذا التفصيل مدوناً في المحضر ، مثله مثل بيانات أخرى كثيرة . والواقع أن سنتياغو نصار لم يكن هناك في الوقت الذي يدعي التوأمان بأنهما بحثا عنه فيه ، إذ كنا قد خرجنا لنقوم بجولة غناء ليلية ، وليس صحيحاً على كل حال أنهما ذهبا إلى هناك . «لو أنهما حضرا لما خرجا من هذا البيت أبداً» ، هذا ما قالته لي ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس ، وبما أنني أعرفها جيداً ، فإنني لم أشك مطلقاً بقولها . لكنهما بالمقابل ذهبا لانتظاره في دكان كلوتيدي أرمينتا وهما يعلمان أن نصف العالم سيمر من هناك ما عدا سنتياغو نصار . «لقد كان المحل الوحيد المفتوح» ، هكذا قالا للمحقق ، وصرحا لي بعد إطلاق سراحهما : «كان لا بد له من أن يمر من هناك عاجلاً أو

آجلاً» . ومع ذلك ، فالجميع يعلمون بأن البوابة الرئيسية لبيت بلائيدا لينيرو تبقى مغلقة من الداخل ، حتى خلال النهار ، وبأن سنتياغو نصار يحمل معه دائماً مفاتيح المدخل الخلفي . ومن هناك دخل بالفعل إلى بيته عندما كان الأخوان فيكاريو ينتظرانه في الجهة المقابلة منذ أكثر من ساعة ، وإذا كان قد خرج فيما بعد من البوابة المؤدية إلى الساحة عندما ذهب لاستقبال المطران فإنه فعل ذلك لسبب طارئ لم يتوصل المحقق الذي كتب المحضر نفسه إلى فهمه .

لم يحدث قط موت معلن بهذا الشكل . فبعد أن باحت الأخت بالاسم ، ذهب الأخوان فيكاريو إلى مستودع حظيرة الخنازير ، حيث يحتفظان بأدوات الذبح ، واختارا أفضل سكينين لديهما : الأولى هي سكين التقطيع ، طولها عشر بوصات وعرضها بوصتان ونصف ، والأخرى هي سكين التنظيف ، طولها سبع بوصات وعرضها بوصة ونصف . أخفياهما بخرقة قماشية ، ومضيا لشحذهما في سوق اللحم ، حيث كان عدد قليل جداً من بائعي اللحم قد فتحوا محلاتهم . والزبائن الأوائل كانوا قليلين ، ولكن اثنين وعشرين شخصاً أعلنوا أنهم سمعوا كل ما قالاه ، واتفق انطباع الجميع بأنهما كانا يقولان ذلك بهدف واحد هو أن يسمعهما الجميع . ورآهما صديقهما الجزار فاوستينو سانتوس ، وهما يدخلان دكانه في الساعة الثالثة وعشرين دقيقة عندما كان قد انتهى لتوه من فتح الطاولة التي يضع عليها الأحشاء ، ولم يعرف سبب مجيئهما في يوم الاثنين وبمثل هذا الوقت المبكر ، وهما ما يزالان يرتديان البدلات السوداء الخاصة بحفلة العرس . كان معتاداً على رؤيتهما في أيام الجمعة ، وفي وقت متأخر قليلاً ، وهما يضعان المريلتين الجلديتين اللتين يرتديانهما عند الذبح . وقال لي فاوستينو سانتوس : «فكرت بأنهما مخموران تماماً إلى حد أنهما لم يخطئا

في الوقت فقط ، وإنما في اليوم أيضاً » . وذكّرهما بأن اليوم هو الاثنين .

فأجابه بابلو فيكاريو بطريقة مهذبة :

ـ ومن لا يعرف ذلك . لقد أتينا لشحذ السكاكين فقط .

شحذا السكينين على القرص الحجري الدوار ، مثلما يفعلان دائماً : أمسك بيدور بالسكينين وراح يلامسهما بالحجر ويقلبها بالتناوب ، بينما أدار بابلو ذراع التدوير ، وكانا في أثناء ذلك يتحدثان مع جزارين آخرين عن روعة حفلة الزفاف . وتذمر بعض الجزارين لأنهم لم يتلقوا نصيبهم من الحلوى مع أنهم زملاء في المهنة ، فوعداهم بأن يبعثا إليهم بنصيبهم فيما بعد . وأخيراً ، جعلا السكينين تزغردان على الحجر الدوار ، ثم وضع بابلو سكينه بجانب المصباح ليرى بريق نصله وقال :

ـ سنقتل سنتياغو نصار .

كانت سمعتهما كأناس طيبين مستقرة تماماً ، لدرجة أن أحداً لم يهتم بما قالا . «ظننا بأنها تقولات سكارى» ، هذا ما صرح به العديد من الجزارين ، وهو نفس ما أعلنته فيكتوريا غوثمان وآخرون كثيرون ممن رأوهما فيما بعد . وقد سألتُ الجزارين يوماً عما إذا كانت مهنة الجزارة توحي بروح لديها استعداد لقتل كائن بشري . فاعترضوا قائلين : «عندما يذبح أحدنا بهيمة لا يجرؤ على النظر إلى عينيها» . وقال لي أحدهم إنه لا يستطيع أن يأكل لحم الحيوان الذي يذبحه . وقال آخر إنه يعجز عن ذبح بقرة كان يعرفها من قبل ، وخصوصاً إذا كان قد شرب من حليبها . فذكرتهم بأن الأخوين فيكاريو كانا يذبحان الخنازير نفسها التي يربيانها ، والتي كانا يعرفانها تماماً لدرجة تمييزها بأسمائها . فرد علي أحدهم : «هذا صحيح ، لكن انتبه جيداً ، فهما لا يسميانها بأسماء بشرية وإنما بأسماء

أزهار» . والوحيد الذي أحس بشعاع من الحقيقة في تهديد بابلو فيكاريو هو فاوستينو سانتوس ، فسأله مازحاً لماذا تريدان قتل سنتياغو نصار على الرغم من وجود أغنياء كثيرين يستحقون الموت قبله .

فأجابه بيدرو فيكاريو :

ـ سنتياغو نصار يعرف السبب .

وروى لي فاوستينو سانتوس بأنه بقي مرتاباً ، وأخبر بذلك الشرطي الذي مرّ بعد قليل ليشتري ليبرة من الكبد من أجل فطور العمدة . واسم ذلك الشرطي ، استناداً إلى محضر التحقيق هو لياندرو بورنوي ، وقد توفي في السنة التالية بضربة من قرن ثور في وريده الوداجي خلال أعياد القديس شفيع القرية . أي أنني لم استطع محادثته أبداً ، لكن كلوتيدي أرمينتا اعترفت لي بأنه كان أول من دخل الدكان عندما كان الأخوان فيكاريو قد جلسا منتظرين .

كانت كلوتيلدي أرمينتا قد حلّت محل زوجها للتو . مثلما هو نظامهما المعتاد . فقد كان المحل يبيع الحليب في الفجر والمأكولات خلال النهار ، ويتحول منذ الساعة السادسة مساء إلى حانة . وكانت كلوتيلدي أرمينتا تفتح المحل في الساعة الثالثة والنصف فجراً . ويتولى زوجها الطيب روخيليو دي لافلور مسؤولية الحانة حتى ساعة إغلاقها . ولوجود عدد كبير من الزبائن التائهين من حفلة الزفاف في تلك الليلة ، فقد بقي إلى ما بعد الساعة الثالثة دون أن يغلق المحل ، وكانت كلوتيلدي أرمينتا قد استيقظت في وقت أبكر من عادتها ، لأنها أرادت أن تبيع الحليب قبل وصول المطران .

دخل الأخوان فيكاريو إلى الدكان في الساعة الرابعة وعشرة دقائق . ومع أن المحل عادة لا يبيع في مثل تلك الساعة إلا المأكولات ، فإن

كلوتيدي أرمينتا باعت لهما زجاجة من خمر القصب ، ليس لأنها كانت تكن لهما احتراماً وحسب ، بل لأنها كانت ممتنة جداً لقطعة الحلوى التي بعثا بها إليها من حفلة الزفاف . وقد شربا الزجاجة في جرعتين طويلتين ، لكنهما استمرا في وعيهما . وقد قالت لي كلوتيلدي أرمينتا : « كانا خامدين ، ولم يكن بإمكانهما رفع ضغطهما حتى ولا ببترول المركب » . بعد ذلك خلعا سترتيهما السوداوين ، وعلقاهما بحذر على مسندي كرسيين وطلبا زجاجة أخرى . كان قميصاهما متسخين بالعرق الجاف ، وذقناهما اللتان لم تحلقا منذ اليوم السابق جعلت مظهرهما فظاً . شربا الزجاجة الثانية ببطء ، وهما جالسان يتطلعان بثبات نحو بيت بلاثيدا لينيرو على الرصيف المقابل . كانت نوافذ البيت مطفأة الأنوار ، والنافذة الأوسع حجماً على الشرفة كانت نافذة غرفة نوم سنتياغو نصار . سأل بيدرو فيكاريو كلوتيلدي أرمينتا إذا ما كانت قد رأت ضوءاً في تلك النافذة ، فأجابته هي بلا ، ولكن اهتمامه بدا لها غريباً ، فسألته :

ـ هل حدث له شيء ؟

ورد عليها بابلو فيكاريو :

ـ لا ، لا شيء سوى أننا نبحث عنه لقتله .

لقد كان الجواب عفوياً حتى أنها لم تستطع أن تصدق أنه صحيح . ولكنها انتبهت إلى أن التوأمين يحملان سكاكين ذبح ملفوفة بخرق كخرق المطبخ ، فسالت :

ـ وهل لي أن أعرف لماذا تريدان قتله باكراً هكذا ؟

وأجاب بيدرو فيكاريو :

ـ هو يعرف السبب .

تفحصتهما كلوتيلدي أرمينتا بجدية . فهي تعرفهما معرفة جيدة إلى حد أنها تستطيع التمييز بينهما ، خصوصاً بعد أن رجع بيدرو فيكاريو من الجيش . « كانا يبدوان كطفلين » ، هكذا قالت لي . وقد أرعبتها هذه الفكرة ، لأنها كانت تعتقد دائماً بأن الأطفال وحدهم قادرون على فعل كل شيء . فانتهت بسرعة من إعداد أوعية الحليب ، وذهبت لتوقظ زوجها وتروي له ما يجري في الدكان . استمع إليها دون روخيليو دي لافلور وهو نصف نائم ، ثم قال لها :

ـ لا تكوني رعديدة ، هذان لا يمكنهما أن يقتلا أحداً ، وخصوصاً إذا كان غنياً .

عندما عادت كلوتيلدي أرمينتا إلى الدكان ، كان التوأمان يتحدثان مع الشرطي لياندرو بورنوي الذي حضر لشراء الحليب للعمدة . لم تسمع ما قالوه ، لكنها خمنت بأنهما قالا له شيئاً عن نواياهما ، وذلك للطريقة التي تأمل بها السكينين وهو يخرج .

كان الكولونيل لاثارو ابونتي قد استيقظ قبل الساعة الرابعة بقليل . وكان قد انتهى من حلاقة ذقنه عندما أخبره الشرطي لياندرو بورنوي بنوايا الأخوين فيكاريو . كان العمدة قد فض في الليلة السابقة خصومات كثيرة بين أصدقاء ، ولهذا لم يتعجل بالذهاب لفض نزاع جديد . ارتدى ملابسه بهدوء ، وأبدل الملابس عدة مرات إلى أن شعر بانسجام ربطة العنق المعقودة كالفراشة مع الملابس ، ثم علق حول عنقه ميدالية جمعية الأخوة المريمية ليستقبل بها المطران . وبينما هو يتناول فطوره المؤلف من كبد مقلي ومغطى بشرائح مستديرة من البصل ، روت له زوجته بتأثر بالغ أن

بياردو سان رومان قد أعاد أنخيلا فيكاريو ، لكنه لم يتناول الأمر بمأساوية مثلها . وقال ساخراً :

ـ رباه! ما الذي سيظنه بنا المطران!

ومع ذلك ، وقبل أن يتم فطوره تذكر ما أخبره به الشرطي قبل قليل ، فجمع الخبرين إلى بعضهما واكتشف على الفور بأنهما يتكاملان تماماً كشقي أحجية . عندئذ مضى إلى الساحة عبر شارع الميناء الجديد ، الذي بدأت بيوته باستعادة الحياة بسبب وصول المطران . وقد قال لي الكولونيل لاثارو أبونتي : «أذكر تماماً بأن الساعة كانت تقارب الخامسة وأن المطر بدأ بالهطول» . وفي الطريق ، أوقفه ثلاثة أشخاص ليرووا له خفية أن الأخوين فيكاريو ينتظران سنتياغو نصار لقتله ، ولكن واحداً منهم فقط عرف أن يقول له أين هما .

وجدهما في دكان كلوتيلدي أرمينتا . «عندما رأيتهما فكرت بأن الأمر ليس سوى تبجح خالص ، لأنهما لم يكونا مخمورين كما ظننت» ، هذا ما قاله لي الكولونيل بحدسه الشخصي . حتى أنه لم يستجوبهما حول نيتهما ، وإنما انتزع منهما السكينين وأمرهما بالذهاب للنوم ، كان يعاملهما باللطف نفسه الذي يعامل به زوجته ليهدئ من ذعرها .

قال لهما :

ـ تصورا ما الذي سيقوله المطران إذا ما وجدكما في هذه الحال!

ذهبا ، وشعرت كلوتيلدي أرمينتا بخيبة أمل أكبر لتساهل العمدة ، فقد كانت تفكر بأنه لا بد من احتجاز التوأمين إلى أن تتضح الحقيقة . عرض لها الكولونيل أبونتي السكينين كحجة أخيرة ، وقال :

ـ لم يعد لديهما ما يقتلان به أحد .

فقالت كلوتيلدي أرمينتا :

ـ ليس هذا هو ما أعنيه ، وإنما تحرير هذين الصبيين المسكينين من الالتزام الرهيب الذي ألقي على كاهليهما .

لقد عرفت بالبداهة ، وكانت على يقين بأن الأخوين فيكاريو لم يكونا متشوقين لتنفيذ الحكم بقدر تشوقهما للعثور على من يعمل لهما معروفاً بمنعهما من ذلك . ولكن الكولونيل أبونتي الذي كان مطمئن الروح ، قال :

ـ لا يمكن اعتقال أحد بسبب الشكوك . والقضية الآن هي في تحذير سنتياغو نصار ، وكل عام وأنتم بخير .

ستتذكر كلوتيلدي أرمينتا دوماً بأن هيئة الكولونيل ابونتي المربوعة كانت تسبب له بعض التعاسة ، أما أنا فكنت أتذكره دائماً كرجل سعيد ، وإن كانت تبدو عليه بعض آثار السهر بسبب ممارسته وحيداً استحضار الأرواح الذي تعلمه بالمراسلة . وقد كان تصرفه في يوم الاثنين ذاك هو الدليل الحاسم على استهتاره . فهو لم يتذكر في الحقيقة سنتياغو نصار إلى أن رآه في الميناء ، وعندها هنأ نفسه لأنه اتخذ القرار المناسب .

لقد صرح الأخوان فيكاريو بنواياهما لأكثر من اثني عشر شخصاً حضروا لشراء الحليب ، وأذاع هؤلاء الخبر في جميع الأنحاء قبل الساعة السادسة ورأت كلوتيلدي أرمينتا أنه من المستحيل أن لا يكون الخبر معروفاً في البيت المقابل . كانت تظن بأن سنتياغو نصار ليس في البيت ، إذ أنها لم تر النور يضاء في غرفة نومه ، وقد طلبت إلى كل من استطاعت رؤيتهم أن يحذروه حيث يجدوه . وبعثت تخبر الأب آمادور كذلك ، مع الراهبة

المستجدة المناوبة التي حضرت لشراء الحليب للراهبات . وبعد الساعة الرابعة ، عندما لمحت الضوء في مطبخ بلاثيدا لينيرو ، بعثت بالخبر الأخير المستعجل إلى فكتوريا غوثمان مع المتسولة التي تذهب كل يوم لتطلب قليلاً من الحليب كصدقة . وعندما زار مركب المطران كان جميع من في القرية تقريباً مستيقظين لاستقباله ، وكنا أقلية ضئيلة نحن الذين لم نعلم بأن الأخوين فيكاريو ينتظران سنتياغو نصار لقتله ، بينما كانت الأسباب بتفاصيلها الكاملة معروفة للجميع .

لم تكن كلوتيلدي أرمينتا قد انتهت من بيع الحليب عندما رجع الأخوان فيكاريو وهما يحملان سكينين أخريين ملفوفتين بأوراق الصحف . إحدى السكينين كانت خاصة بالتقطيع ، لها نصل صدئ وصلب ، طوله اثنتا عشرة بوصة وعرضه ثلاث بوصات ، وقد صنعه بيدرو فيكاريو من نصل منجل طويل الذراع ، في فترة لم تكن تصل فيها السكاكين الألمانية بسبب الحرب . أما السكين الأخرى فكانت أقصر لكنها عريضة ومحدبة . وقد رسمها القاضي المحقق في المحضر ، ربما لأنه لم يستطع وصفها ، وتجرأ بصعوبة على القول إنها تشبه حساماً معقوفاً ومصغراً . وبهاتين السكينين تم اقتراف الجريمة ، وكلتاهما بدائيتان ومستعملتان كثيراً .

لم يستطع فاوستينو سانتوس فهم ما جرى . فقد قال لي: «عادا مرة أخرى لشحذ السكاكين ، وصرخا من جديد ، ليسمعهما الناس ، بأنهما سينتزعان أحشاء سنتياغو نصار ، فظننت بأنهما يهرجان ، خصوصاً وأنني لم أنتبه إلى السكاكين معتقداً أنها السكاكين السابقة نفسها» . ومع ذلك ، فقد لاحظت كلوتيلدي أرمينتا مذ رأتهما في هذه المرة بأنهما مفعمان بالتصميم السابق نفسه .

لقد حدث بينهما في الواقع أول اختلاف . فهما لم يكونا شديدي الاختلاف من الداخل عما هما عليه من الخارج وحسب ، بل كانت لهما في حالات الطوارئ الصعبة صفات متناقضة . وقد أدركنا ، نحن أصدقاءهما ، ذلك منذ المدرسة الابتدائية . كان بابلو فيكاريو أكبر من أخيه بست دقائق ، وكان أخصب خيالاً وأكثر حزماً حتى سن المراهقة . أما بيدرو فيكاريو فقد بدا لي دائماً أكثر عاطفية ، وفي الوقت ذاته أكثر تسلطاً . تقدما معاً إلى الخدمة العسكرية وهما في العشرين من العمر ، فأعفي بابلو فيكاريو من أجل إعالة الأسرة . أنهى بيدرو فيكاريو الخدمة العسكرية خلال أحد عشر شهراً في وحدات النظام العام . وقد أنضج نظام الوحدة العسكرية ، الذي فاقم خوفه من الموت ، ميله إلى إصدار الأوامر وعادة التحدث بدل أخيه . رجع كرقيب يحمل داء السيلان الأبيض الذي قاوم أكثر أدوية الطب العسكري فظاظة ، وحقن الزرنيخ ومطهرات البرمنغنات التي وصفها له الدكتور ديونيسيو إغواران . ولم يتوصلوا إلى شفائه إلا في السجن . كنا ، نحن الأصدقاء ، متفقين على أن بابلو فيكاريو قد طور استقلالية من نوع غريب عن أخيه الأصغر عندما رجع بيدرو فيكاريو بروحه العسكرية وبشيء آخر جديد هو رفع قميصه ليعرض على كل من يريد أن يرى ، الندبة الطويلة التي خلفها جرح بطلق ناري أصابه في خاصرته اليسرى . وبدأ بابلو فيكاريو يشعر أيضاً بنوع من الحماسة أمام داء السيلان الرجولي ، الذي يعرضه أخوه كوسام حرب .

وبيدرو فيكاريو ، حسب تصريح خاص ، هو الذي اتخذ القرار بقتل سنتياغو نصار ، ولم يفعل أخوه في البداية سوى اللحاق به . ولكنه هو أيضاً الذي اعتبر أن التزامهما قد أنجز عندما انتزع منهما العمدة السلاح ، وعندئذ تسلم بابلو فيكاريو القيادة . لم يذكر أي منهما شيئاً عن هذا

الخلاف في تصريحاتهما المنفصلة أمام المحقق . ولكن بابلو فيكاريو أكد لي عدة مرات بأن إقناعه لأخيه بالقرار النهائي لم يكن أمراً سهلاً . ربما لم يكن الأمر كذلك في الواقع وإنما كانت مجرد نوبة من الهلع . لكن ما حدث هو أن بابلو فيكاريو دخل وحيداً إلى زريبة الخنازير ليبحث عن سكينين أخريين ، بينما كان أخوه يحتضر قطرة بعد قطرة وهو يحاول التبول تحت أشجار التمر الهندي . وقد قال لي بيدرو فيكاريو في المقابلة الوحيدة التي أجريتها معه : «لم يعرف أخي مطلقاً ما كنت أعانيه . فقد كنت كمن يتبول فتات زجاج مطحون» . وعندما رجع بابلو فيكاريو وهو يحمل السكينين وجده ما يزال محتضناً الشجرة . وقد قال لي : «كان يتعرق عرقاً بارداً من الألم ، وحاول أن يطلب مني الذهاب وحدي لأنه ليس في وضع يسمح له بقتل أحد» . جلس على إحدى طاولات النجارة التي وضعوها تحت الأشجار من أجل غداء العرس ، وأنزل سرواله حتى الركبتين . و «بقي حوالى نصف ساعة وهو يبدل الكمادات النسيجية التي يلف بها عضوه» ، هكذا قال لي بابلو فيكاريو . والحقيقة أن بيدرو فيكاريو لم يتأخر أكثر من عشر دقائق ، ولكنه كان أمراً صعباً ، ولغزاً كبيراً بالنسبة لبابلو فيكاريو الذي ترجمه على أنه حيلة جديدة من أخيه لإضاعة الوقت حتى الفجر . فوضع له السكين في يده وأوقفه بالقوة تقريباً ليبحث عن شرف الأخت الضائع .

قال له :

ـ ليس ثمة مهرب ؛ فالذي حدث لأختنا كأنه حدث لنا .

خرجا من بوابة حظيرة الخنازير وهما يحملان السكينين دون لفّهما ، وتابعا سيرهما وسط صخب الكلاب في باحات البيوت . كان ضوء الفجر قد بدأ بالانتشار . ويتذكر بابلو فيكاريو : «لم تكن تمطر» . ويتذكر بيدرو :

«بالعكس : كان يهب هواء بحري ، وكان ما يزال بالإمكان عد النجوم بالإصبع» . كان الخبر حينئذ قد انتشر بشكل واسع ، وقد فتحت هورتينسيا باوتي الباب عندما تصادف مرورهما أمام بيتها ، فكانت أول من بكى سنتياغو نصار . وقد قالت لي : «ظننت بأنهما قد قتلاه ، لأنني رأيت السكينين على ضوء مصباح الشارع ، وبدتا لي وكأنهما تقطران دماً» . وأحد البيوت القليلة التي كانت مفتوحة في هذا الشارع المظلم هو بيت بروديثيا كوتيس ، خطيبة بابلو فيكاريو . وقد اعتاد التوأمان كلما مرا من هنا في مثل هذا الوقت ، وخصوصاً أثناء ذهابهما إلى السوق في أيام الجمعة ، على الدخول لتناول أول فنجان قهوة . دفعا بوابة الباحة ، تتبعهما الكلاب التي تعرفت عليهما في ضوء الفجر الباهت ، وسلما على والدة بروديثيا كوتيس في المطبخ . لم تكن القهوة جاهزة بعد . فقال بيدرو فيكاريو :

ـ سنتركها إلى ما بعد ، فنحن مستعجلان الآن .

فقالت :

ـ أفهم ذلك يا أبنائي ، فالشرف لا يحتمل انتظاراً .

ولكنهما انتظرا على أي حال ، وعندئذ كان بيدرو فيكاريو هو الذي فكر بأن أخاه يضيع الوقت متعمداً . وبينما هما يشربان القهوة ، خرجت بروديثيا كوتيس ، التي كانت في أوج المراهقة ، إلى المطبخ حاملة لفافة من أوراق الصحف القديمة لتضرم بها النار في الموقد . وقد قالت لي : «كنت أعرف إلى أين هما ذاهبان . ولم أكن موافقة على ذلك وحسب ، بل ما كنت لأتزوج منه مطلقاً لو لم يقم بواجبه كرجل» . وقبل أن يغادرا المطبخ ، أخذ منها بابلو فيكاريو ورقتين من أوراق الصحف ، وأعطى

إحداهما لأخيه كي يلف بها السكين . بقيت بروديثيا كوتيس تنتظر في المطبخ إلى أن رأتهما يخرجان من بوابة الباحة ، واستمرت تنتظر طوال ثلاث سنوات دون لحظة فتور إلى أن خرج بابلو فيكاريو من السجن وأصبح زوجها مدى الحياة .

قالت لهما :

ـ انتبها جيداً .

لم تكن كلوتيلدي أرمينتا ناقصة العقل إذن عندما بدا لها أن التوأمين لم يعودا مصممين مثلما كانا من قبل ، فقدمت لهما زجاجة من الخمر المقطر بالبخار على أمل إخمادهما تماماً . وقد قالت لي : «في ذلك اليوم أدركت كم نحن وحيدات معشر النساء في العالم!» . طلب منها بيدرو أن تعيره أدوات حلاقة زوجها ، فأحضرت له الفرشاة والصابون والمرآة وماكينة الحلاقة مع شفرة جديدة ، لكنه حلق ذقنه بسكين تقطيع اللحم . وفكرت كلوتيلدي أرمينتا بأن ذلك هو ذروة الفحولة « كان يبدو وكأنه قاتل من قتلة السينما » ، هذا ما قالته لي . بينما فسر هو الأمر لي فيما بعد ، وكان محقاً ، بأنه قد تعلم وهو في الثكنة حلاقة ذقنه بموسى الحلاقة ، ولم يعد بإمكانه أن يحلق بطريقة أخرى على الإطلاق . أما أخوه من جهته ، فقد حلق ذقنه بأكثر الوسائل بؤساً ، مستعملاً ماكينة الحلاقة المستعارة من دون روخيليو دي لافلور . وفي النهاية شربا الزجاجة بصمت ، وببطء شديد ، وهما يتأملان بمزاج متبلد ، كمزاج من يستيقظ في الفجر ، النافذة المظلمة في البيت المقابل ، بينما كان يدخل إلى الدكان زبائن يتظاهرون بأنهم يريدون شراء الحليب وهم في الحقيقة ليسوا بحاجة إليه ، أو يسألون عن مأكولات لا وجود لها ، وفي نيتهم التأكد مما إذا كان صحيحاً أنهما ينتظران سنتياغو نصار ليقتلاه .

لن يرى الأخوان فيكاريو هذه النافذة مضاءة . فقد دخل سنتياغو نصار إلى البيت في الساعة الرابعة وعشرين دقيقة ، ولكنه لم يكن مضطراً إلى إشعال أي نور ليصل إلى غرفة نومه لأن مصباح الدرج كان يضاء طوال الليل . وألقى بنفسه على السرير في الظلام وهو بملابسه ، إذ لم يبق أمامه سوى ساعة واحدة للنوم ، وهكذا وجدته فيكتوريا غوثمان عندما صعدت لتوقظه لكي يذهب لاستقبال المطران . لقد كنا معاً في بيت ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس إلى ما بعد الساعة الثالثة ، عندما صرفت هي نفسها الموسيقيين وأطفأت أنوار حلقة الرقص لتنام خلاسيات اللذة اللواتي يعملن عندها ويسترحن وحدهن . فمنذ ثلاثة أيام بلياليها وهن يعملن دون توقف ، فقد لبين في البداية ، سراً ، طلبات ضيوف الشرف إلى حفلة الزفاف ، ثم التفتن دون ستر ووراء أبواب مفتوحة إلينا نحن الذين لم نكتف بحفلة الزفاف . وماريا أليخاندرينا ثيرفانتس ، التي كنا نقول إنها لا تنام إلا مرة واحدة في حياتها ، وذلك عند موتها ، هي المرأة الأكثر أناقة والأكثر رقة بين النساء اللواتي عرفتهن على الإطلاق ، والأكثر أفضالاً في السرير ، ولكنها الأكثر صرامة أيضاً . كانت قد ولدت وترعرعت هنا ، وهنا ما زالت تعيش في بيت مشرع الأبواب فيه عدة غرف للإيجار وباحة فسيحة للرقص فيها ثمار قرع مفرغة تستخدم كأنوار اشترتها من المتاجر الصينية في باراماريبو . وهي التي قوضت عذرية أبناء جيلي ، وعلمتنا أكثر بكثير مما يجب أن نعرف ، ولكنها علمتنا قبل كل شيء بأنه ليس هناك مكان في العالم أتعس من سرير فارغ . لقد فقد سنتياغو نصار رشده مذ رآها أول مرة . فقلت له محذراً : الصقر الذي يتجرأ على محاربة بلشونة ، يعرض نفسه للخطر . لكنه لم يستمع إلي ، إذ أنه فقد صوابه بدعوات ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس الوهمية ، لقد كانت هي هواه الجنوني ، ومعلمته الدموع وهو في

الخامسة عشرة من عمره ، إلى أن انتزعه إبراهيم نصار من السرير بضربه بالحزام وحبسه أكثر من سنة في مزرعة الديفينو روسترو . ومنذ ذلك الحين وهما مرتبطان بعاطفة جدية ، ولكن دون فوضى الحب ، وقد كانت تحترمه كثيراً إلى حد أنها ما عادت تضاجع أحداً في أثناء وجوده . وفي تلك العطلة المدرسية الأخيرة كانت تصرفنا باكراً متذرعة بالحجة الواهية بأنها متعبة ، ولكنها تترك الباب دون إقفاله كما تترك النور مضاء في الممر لكي أرجع أنا وأدخل خلسة .

كانت لسنتياغو نصار موهبة شبه سحرية في التنكر ، وكانت تسليته المفضلة هي تغيير هيئة الفتيات الخلاسيات . فهو يسطو على ملابس بعضهن ليحول بها هيئة الأخريات ، فكن جميعهن يشعرن في النهاية بأنهن مختلفات عن ذواتهن ومشابهات لأولئك اللواتي ليسوا هن . وفي إحدى المرات ، رأت إحداهن نفسها مكررة في فتاة أخرى بإتقان تام ، مما جعلها تعاني نوبة بكاء ، وقد قالت : «شعرت وكأنني قد خرجت من المرآة» . لكن ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس لم تسمح لسنتياغو نصار في تلك الليلة بأن يبتهج للمرة الأخيرة بمهارته في التنكر والتحويل ، وقد فعلت ذلك بحجة تافهة جداً مما جعل طعم تلك الذكرى الكريه يغير مسار حياتها . وهكذا اصطحبنا الموسيقيين لنقوم بجولة غناء ليلية ، ونتابع الحفلة على حسابنا ، في حين كان التوأمان ينتظران سنتياغو نصار لقتله . وكان هو الذي اقترح ، في حوالى الساعة الرابعة ، أن نصعد إلى ربوة الأرمل شيوس لنغني للعروسين .

لم نكتف بالغناء لهما تحت النوافذ ، وإنما ألقينا ألعاباً نارية وفجرنا المفرقعات في الحدائق ، لكننا لم نتلق أي إشارة تدل على الحياة داخل البيت . لم يكن ليخطر ببالنا أنه لا يوجد أحد في الداخل ، خصوصاً وأن

السيارة الجديدة كانت أمام الباب ، وغطاء سقفها ما يزال مطوياً وما زالت عليها كذلك شرائط القماش وأزهار البرتقال التي علقوها في الحفلة . ارتجل أخي لويس إنريكي ، الذي كان يعزف الجيتار كعازف محترف في ذلك الحين ، أغنية على شرف العروسين تتضمن توريات حول الزواج . وحتى ذلك الوقت لم يكن المطر قد هطل ، بل على العكس ، فقد كان القمر في وسط السماء ، والهواء صافياً ، وفي نهاية الوهدة تبدو نثارات ضوء من النيران المشتعلة في المقبرة . في الجانب الآخر كانت تتألق بيارات الموز الزرقاء تحت القمر ، والبرك الحزينة وخط الكاريبي المتلألئ في الأفق . أشار سنتياغو نصار إلى ضوء متقطع في البحر وقال لنا إن ذلك الضوء هو الروح المحزونة لسفينة نخاسة غرقت بحمولتها من عبيد السنغال قبالة مدخل ميناء كرتخينا دي اندياس الفسيح . لم يكن بالامكان التفكير بأنه يعاني قلقاً في ضميره ، مع أنه كان يجهل حينئذ أن حياة أنخيلا فيكاريو الزوجية العابرة قد انتهت منذ ساعتين . وأن بياردو سان رومان قد أخذها إلى بيت والديها سيراً على الأقدام حتى لا تفضح ضجة محرك السيارة مصيبته قبل الأوان ، وأنه عاد وحيداً من جديد إلى بيت الأرمل شيوس المطفأ الأنوار .

عندما نزلنا عن الرابية ، دعانا شقيقي لتناول فطورنا سمكاً في مطاعم السوق الصغيرة ، ولكن سنتياغو نصار اعترض لأنه يريد أن ينام ساعة من الوقت ريثما يصل المطران . ذهب مع كريستو بيدويا إلى ضفة النهر طائفاً حول خانات الفقراء التي بدأت تضاء في الميناء القديم ، وقبل أن ينعطف عند الناصية لوح لنا بيده مودعاً . وكانت تلك هي آخر مرة نراه فيها .

وعند المدخل الخلفي لبيته ، ودعه كريستو بيدويا متفقاً معه على اللقاء في الميناء فيما بعد . نبحت عليه الكلاب كعادتها كلما أحست به يدخل ،

فأسكتها في العتمة بهز المفاتيح لها . كانت فيكتوريا غوثمان تراقب إبريق القهوة على النار عندما مر من المطبخ متوجهاً إلى داخل البيت ، فنادته :

ـ ستكون القهوة جاهزة بعد قليل أيها الأبيض .

قال لها سنتياغو نصار إنه سيتناولها فيما بعد ، وطلب منها أن تبعث ديفينا فلور لكي توقظه في الخامسة والنصف ، وأن تحضّر له ملابس نظيفة كالتي يرتديها . وبعد دخوله لينام بلحظة ، تلقت فيكتوريا غوثمان الخبر الذي بعثت به كلوتيلدي أرمينتا مع متسولة الحليب . وفي الخامسة والنصف نفذت الأمر بإيقاظه ، ولكنها لم تبعث إليه ابنتها ديفينا فلور وإنما صعدت هي نفسها إلى غرفة النوم ومعها الملابس الكتانية ، ذلك أنها لم تكن تضيع فرصة لحماية ابنتها من مخالب السيد المالك .

كانت ماريا أليخاندرينا ثرفانتس قد تركت باب البيت مفتوحاً . فودعتُ شقيقي ، واجتزت الممر حيث تنام قطط الخلاسيات متكومة ما بين الزنابق ، ثم دفعتُ باب غرفة النوم دون أن أطرقه . كانت الأنوار مطفأة ، ولكن ما ان دخلتُ حتى أحسست برائحة امرأة دافئة ورأيت عيني فهدة مسهدة في الظلام ، وبعدها ما عدت أعي شيئاً إلى أن بدأت الأجراس تُقرع .

دخل أخي إلى دكان كلوتيلدي أرمينتا ، وهو في طريقه إلى بيتنا ، ليشتري سجائر . كان قد شرب كثيراً ، لدرجة أن ذكرياته عن ذلك اليوم كانت مشوشة دوماً ، لكنه لم ينس أبداً الجرعة القاتلة التي قدمها له بيدرو فيكاريو . « كانت جمرة صافية » ، هكذا قال لي . واستيقظ بابلو فيكاريو الذي كان قد بدأ يغفو ، ونهض واقفاً عندما أحس به يدخل ، وعرض عليه السكين قائلاً له :

ـ سنقتل سنتياغو نصار .

أخي لا يتذكر ذلك . وقد قال لي عدة مرات : « وحتى لو كنت أذكره لما صدقته . فمن الذي يخطر بباله أن التوأمين سيقتلان أحداً ، وخصوصاً بسكين ذبح الخنازير! » . بعد ذلك سألاه عن مكان سنتياغو نصار ، لأنهما رأياهما معاً ، ولم يتذكر أخي جوابه لهما كذلك . ولكن كلوتيلدي أرمينتا والأخوين فيكاريو فوجئوا عندما سمعوا الجواب ، الذي استقر في محضر التحقيق مع التصريحات المنفصلة ، وحسب قولهم ، فإن أخي قد أجاب : « لقد مات سنتياغو نصار » . بعد ذلك أطلق دعوة خاصة ، واصطدم بدرابزين البوابة ، وخرج وهو يتعثر . وفي وسط الساحة التقى بالأب آمادور في طريقه إلى الميناء بملابسه الخاصة بالخدمة الدينية ، يتبعه قندلفت يقرع جرساً صغيراً وعدد من المساعدين يحملون المذبح من أجل قداس المطران في الخلاء . وعند مرورهم ، رسم الأخوان فيكاريو إشارة الصليب .

روت لي كلوتيلدي أرمنتا بأنهما فقدا آخر الآمال عندما مر الكاهن من أمام الدكان مرور الكرام . وقالت لي : « فكرت بأنه لم يتلق رسالتي » . ومع ذلك ، فإن الأب آمادور اعترف لي بعد سنوات طويلة ، عندما اعتزل العالم ليقيم في المصح الضبابي في كالافيل ، بأنه تلقى بالفعل رسالة كلوتيلدي أرمينتا ، ورسائل أخرى حاسمة ، عندما كان يستعد للذهاب إلى الميناء . وقال لي : « لم أعرف في الحقيقة ما علي عمله . فقد فكرت في أول الأمر بأن تلك القضية ليست من اختصاصي وإنما هي من اختصاص السلطات المدنية ، ولكنني قررت بعد ذلك أن أقول ، وأنا في طريقي ، شيئاً عن الأمر لبلاثيدا لينيرو . » ومع ذلك ، فقد نسي الموضوع تماماً وهو يجتاز الساحة . وقال لي : « يجب أن تفهمني . ففي ذلك اليوم المشؤوم حضر المطران » . وفي

لحظة الجريمة أحس باليأس الكامل ، وبعدم جدارته ، حتى أنه لم يخطر بباله أن يفعل شيئاً سوى الأمر بقرع الأجراس .

دخل شقيقي لويس إدريكي إلى البيت من باب المطبخ الذي تركته والدتي مغلقاً دون إقفاله حتى لا يشعر بنا أبي عندما ندخل . ذهب إلى الحمام قبل أن ينام ، لكنه استغرق في النوم جالساً في المرحاض ، وعندما نهض شقيقي خيمي ليذهب إلى المدرسة ، وجده ملقى على بطنه فوق البلاط وهو يغني نائماً . وشقيقتي الراهبة التي لم تذهب لاستقبال المطران لأنها كانت محمومة بأربعين درجة ، لم تتمكن من إيقاظه . وقد قالت لي : « كانت الساعة تعلن الخامسة عندما ذهبتُ إلى الحمام » . بعد ذلك ، وعندما دخلت أختي مارغوت لتستحم وتذهب إلى الميناء ، استطاعت حمله بمشقة إلى غرفة النوم . ومن الجانب الآخر لأحلامه ، سمع دون أن يستيقظ أول جؤارات مركب المطران . بعد ذلك نام بعمق ، وهو منهوك من حفلة العرس ، إلى أن دخلت شقيقتي الراهبة إلى غرفة النوم محاولة ارتداء ثوب الرهبنة ، وأيقظته بصيحة مجنونة :

ـ لقد قتلوا سنتياغو نصار!

التنكيل الذي أحدثته السكينان كان مجرد بداية بسيطة لتشريح الجثة القاسي الذي وجد الأب كارمن آمادور نفسه مجبراً على إجرائه بسبب غياب الدكتور ديونيسيو إغواران . « وكأنما كنا نقتله مرة أخرى بعد موته » ، هذا ما قاله لي الكاهن بعد اعتزاله في كالافيل ، وأضاف : « ولكنها كانت أوامر العمدة ، ولا بد من تنفيذ أوامر ذلك الهمجي كاملة ، مهما كانت غبية » . لم يكن حديثه هذا عادلاً تماماً . ففي فوضى يوم الاثنين غير المعقول ذاك ، بعث الكولونيل أبونتي ببرقية مستعجلة إلى حاكم المقاطعة ، وقد خوله هذا باتخاذ الإجراءات الأولية ريثما يبعثون بقاض للتحقيق . كان العمدة في السابق ضابطاً في وحدة عسكرية ، ولم تكن لديه أي خبرة في أمور القضاء ، وكان متغطرساً إلى حد لا يسمح به لنفسه سؤال أحد يعرف من أين يجب أن يبدأ . وأول ما أقلقه هو تشريح الجثة . وقد أعفى كريستو بيدويا ، الذي كان طالباً يدرس الطب ، من هذه المهمة بسبب صداقته الحميمة لسنتياغو نصار . وفكر العمدة بإمكانية الاحتفاظ بالجثة مبردة إلى حين عودة الدكتور ديونيسيو إغواران ، لكنه لم يجد ثلاجة تتسع لجسد إنسان ، والثلاجة الوحيدة المناسبة في السوق كانت معطلة . كان الجسد معروضاً لأنظار

الناس في وسط الصالة ، وهو مسجى فوق سرير معدني ضيق بينما كانوا يصنعون التابوت المناسب لرجل ثري . أحضروا المراوح الكهربائية من غرف النوم ، ومن بعض البيوت المجاورة ، ولكن كان هناك أناس كثيرون متلهفون لرؤيته مما استدعى إبعاد المفروشات ونزع أقفاص العصافير وأصص السرخس المعلقة ، ومع كل ذلك ، فقد كان الحر لا يطاق . بالإضافة إلى ازدياد صخب الكلاب الهائجة لإحساسها برائحة الموت . فهي لم تتوقف عن النباح منذ دخولي البيت ، عندما كان سنتياغو نصار ما يزال يحتضر في المطبخ ، وقد وجدتُ ديفينا فلور تبكي صارخة وهي تبعد الكلاب عنه بعصا في يدها .

صرختْ بي :

ـ ساعدني ، فما تريده هو أكل أحشائه .

حبسنا الكلاب في المذود وأقفلنا عليها الباب بالقفل . وبعد ذلك أمرتْ بلاثيدا لينيرو بأن يتم إبعاد الكلاب إلى مكان منعزل إلى ما بعد الدفن . ولكن ، عند الظهيرة تقريباً ، هربت الكلاب من حيث كانت واقتحمت البيت هائجة ، دون أن يعرف أحد كيف حدث ذلك . فاستشاطت بلاثيدا لينيرو بالغضب دفعة واحدة ، وصرخت :

ـ يا لهذا الكلاب القذرة!... اقتلوها!

نُفذ الأمر فوراً ، وعاد الصمت يخيم على البيت . حتى ذلك الحين لم يكن ثمة ما يُخشى منه في حالة الجثة . فالوجه بقي سالماً ، ومحتفظاً بالملامح نفسها التي كانت له حين كان يغني ، وكان كريستو بيدويا قد أعاد الأحشاء إلى موضعها وثبتها بعصابة كتانية . ومع ذلك ، فقد بدأ ينز من الجروح في المساء سائل كثيف جذب إليه الذباب ، وظهرت بقعة بنفسجية

في وجنته وامتدت ببطء شديد ، مثلما يمتد ظل غيمة فوق الماء ، إلى منابت الشعر . والوجه الذي كان متسامحاً أبداً ، اكتسى بملامح معادية ، فغطته أمه بمنديل ، عندئذ أدرك الكولونيل أبونتي بأن الانتظار لم يعد ممكناً ، وأمر الأب آمادور بإجراء التشريح . «لو أننا دفناه لكان إخراجه من القبر بعد أسبوع أسوأ مما فعلناه» هذا ما قاله . كان الكاهن قد درس الطب والجراحة في سلمنكا ، لكنه التحق بالمدرسة الاكليريكية قبل أن يتخرج . وحتى العمدة نفسه كان يعلم أن تشريحه يفتقد القيمة الشرعية . ولكنه قام مع ذلك بتنفيذ الأمر .

لقد كانت مجزرة ، اكتملت في المدرسة العامة بمساعدة العطار ، صانع العقاقير الذي دون الملاحظات ، وطالب في السنة الأولى بكلية الطب كان يمضي إجازته هنا . ولم يكن لديهم سوى بعض أدوات الجراحة البسيطة ، أما بقية الأدوات فقد استخدموا بدلاً منها معدات الصناع اليدويين . ولكن بغض النظر عن التمزيق الذي أصاب الجثة ، فإن تقرير الأب آمادور بدا صحيحاً ، وقد ضمه المحقق إلى المحضر كوثيقة مفيدة .

من بين الجراح العديدة التي في الجثة كانت هناك سبعة جراح قاتلة . الكبد كان مشطوراً إلى قسمين بجرحين عميقين من جهته الأمامية . وكانت توجد أربعة شقوق في المعدة ، أحدها عميق جداً لدرجة أنه اخترق المعدة بكاملها وهتك البنكرياس . وأربعة جروح في القولون المعترض ، وجراح كثيرة في الأمعاء الدقيقة . والجرح الوحيد في الظهر ، هو الذي كان على مستوى الفقرة الثالثة من الفقرات القطنية ، وقد ثقب له الكلية اليسرى . وكانت الفجوة البطنية مملوءة بكتل كبيرة من الدم ، وما بين خليط محتويات المعدة والمواد البرازية ظهرت ميدالية ذهبية كان سنتياغو نصار قد

ابتلعها وهو في الرابعة من عمره . في الصدر جرحان غائران أحدهما في الفراغ الثاني بين الأضلاع اليمنى امتد ليصيب الرئة ، والآخر قريب جداً من الإبط الأيسر . وستة جراح أخرى صغيرة في الذراعين والكتفين ، وطعنتان أفقيتان : إحداهما في الفخذ الأيمن والأخرى في عضلات البطن . وثقب عميق في باطن الكف اليمنى ، قال عنه التقرير : «يبدو وكأنه أثر عملية صلب» . وكان وزن الكتلة الدماغية يزيد ستين غراماً عن دماغ إنكليزي عادي ، وقد أشار الأب آمادور في تقريره إلى أنه كان لدى سنتياغو نصار ذكاء متفوق وينتظره مستقبل باهر . ومع ذلك ، فقد أشار في النهاية إلى تضخم في الكبد عزاه إلى التهاب ألمّ بكبده ولم يعالج بصورة جيدة . قال لي : «هذا يعني أنه لم يكن أمامه سوى سنوات قليلة في الحياة» . كان الدكتور ديونيسيو إغواران ، الذي عالج سنتياغو نصار فعلاً من التهاب في الكبد وهو في الثانية عشرة من عمره ، يتذكر ذلك التشريح ساخطاً . وقد قال لي : «كان لا بد له من أن يكون راهباً لتكون لديه مثل تلك الجلافة . فأنا لم أجد وسيلة لإفهامه بأن أكبادنا نحن أبناء المناطق المدارية أكبر حجماً من أكباد الغاليسيين» . وأشار التقرير إلى أن سبب الوفاة هو نزيف حاد سببه أي جرح من الجراح السبعة الكبرى .

أعادوا إلينا جسداً مختلفاً تماماً . فنصف الجمجمة قد أتلف بمنشار ثقب القحف ، والوجه الرشيق الذي احتفظ به الموت فقد هويته . وفوق ذلك ، انتزع الكاهن الأحشاء المقطعة من مكانها ولم يعرف في النهاية ما يفعل بها ، فباركها وهو حانق بكلمة سريعة ثم ألقى بها إلى صفيحة القمامة . فانتهى بذلك فضول آخر الفضوليين الذين كانوا يطلون من النافذة ، وأغمي على المساعد ، أما الكولونيل لازارو أبونتي الذي شهد وتسبب في مذابح قمع عديدة ، فقد أصبح منذ ذلك اليوم نباتياً بالإضافة لتحوله إلى

الروحانيات . قشرة الرأس الفارغة ، التي حشيت بخرق قماشية وكلس وخيطت ، كما تخيط امرأة مسترجلة ، بخيط قنب خشن وإبرة غليظة ، كادت أن تفلت عندما وضعناه في التابوت الجديد المبطن من الداخل بالحرير . «لقد فكرتُ بأنه سيحفظ هكذا لفترة أطول» ، هذا ما قاله لي الأب آمادور . وما حدث هو العكس : فقد اضطررنا لدفنه بسرعة في الفجر ، لأنه كان في حالة سيئة ما عاد تحملها في البيت ممكناً .

أطل يوم الثلاثاء مكدراً . ولم أجد الشجاعة الكافية لأنام وحيداً بعد انتهاء المهمة القاسية ، فدفعت باب بيت ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس لأرى إذا ما كانت تقفل الباب بالمزلاج . كانت ثمار القرع المستخدمة كمصابيح مضاءة على الأشجار ، وفي باحة الرقص عدة مواقد يشتعل فيها الحطب وعليها قدور ضخمة يتصاعد منها البخار ، حيث الفتيات الخلاسيات يصبغن بلون الحداد الأسود ملابس الحفلات التي يملكنها . وجدتُ ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس مستيقظة كعادتها في الفجر ، وعارية تماماً كعادتها عندما لا يكون ثمة غرباء في البيت . كانت تجلس بطريقة تركية على السرير الملكي مقابل طبق بابلي ممتلئ بالمأكولات : أضلاع عجل ، ودجاجة مسلوقة ، وشرحات خنزير ، مزينة بموز وخضار تكفي لخمسة أشخاص . فالأكل بلا حساب كان على الدوام طريقتها الوحيدة في البكاء ، ولم أرها تفعل ذلك أبداً بمثل ذلك الحزن . استلقيت إلى جانبها بملابسي ، دون أن أقول شيئاً تقريباً ، وأنا أبكي أيضاً على طريقتي . كنت أفكر بفظاعة المصير الذي لاقاه سنتياغو نصار ، والذي انتزع منه عشرين سنة من السعادة ، ليس بموته وحسب ، وإنما كذلك بتقطيع أوصاله ، وتبدده وتلاشيه . حلمت بامرأة تدخل إلى الغرفة وهي تحمل بين ذراعيها طفلة تمضغ دون توقف فتسقط حبات نصف ممضوغة من

الذرة على صدريتها . وقالت لي المرأة : «إنها تمضغ مثل خلد أخرق ، فهي تهمل حيناً ، وتهرس حيناً آخر» . وفجأة أحسست باليدين المتلهفتين تفكان أزرار قميصي ، وشعرت بالرائحة الخطيرة تنبعث من بهيمة الحب الراقدة في ظهري ، وأحسست بأني أنحدر إلى لذة الرمال المتحركة في رقتها . ولكنها توقفت فجأة ، وسعلت من بعيد ثم انزلقت من حياتي .

قالت :

ـ لا أستطيع ، فأنت تحمل رائحته .

ليس أنا فقط . الجميع كانوا يحملون رائحة سنتياغو نصار في ذلك اليوم . وقد أحس بها الأخوان فيكاريو وهما في الزنزانة التي سجنهما فيها العمدة ريثما يخطر بباله ما يفعله بهما . «على الرغم من المرات الكثيرة التي دلكت بها نفسي بالصابون والاسفنجة فإنني لم أستطع انتزاع الرائحة عني» ، هذا ما قاله لي بيدرو فيكاريو . كانا قد أمضيا ثلاث ليال بلا نوم ، لكنهما لم يجدا إلى الراحة سبيلاً . فكلما أشرفا على النوم يعودان لاقتراف الجريمة . وبعد أن أصبح عجوزاً تقريباً ، حاول بابلو فيكاريو أن يشرح لي حالته في ذلك اليوم الذي بلا نهاية ، فقال دون بذل أي جهد : «كنت وكأنني مستيقظ استيقاظتين» . هذه العبارة جعلتني أفكر بأن أقسى ما عاناه في الزنزانة هو الصحو .

كان طول كل جدار من جدران الزنزانة ثلاثة أمتار ، وفيها كوة مرتفعة جداً لها قضبان حديدية ، وفي الحجرة أيضاً كنيف متنقل . ودلو ماء مع طسته وإبريقه ، وسريران مبنيان من الحجر عليهما فرشتان من الحصير . وكان الكولونيل أبونتي الذي بني السجن تحت إشرافه ، يقول إنه لم يوجد

بعد فندق بمثل هذا المستوى من الإنسانية . وشقيقي لويس إنريكي موافق على ذلك ، فقد حبسوه يوماً بسبب شجار نشب بين الموسيقيين ، وسمح يومها الكولونيل ، بدافع الشفقة ، لإحدى الخلاسيات أن ترافقه تلك الليلة . وربما فكر الأخوان فيكاريو بالأمر نفسه في الساعة الثامنة صباحاً ، عندما أحسا بأنهما أصبحا بمنجى من العرب . في ذلك الوقت كانا مرتاحين لانتشار صيتهما بأنهما نفذا قانونهما ، والشيء الوحيد الذي كان يقلقهما هو إلحاح الرائحة . طلبا ماء وافراً وصابوناً واسفنجة ، وغسلا الدم عن أذرعهما ووجهيهما ، وغسلا كذلك قميصيهما ، ولكنهما لم يتوصلا إلى الراحة . طلب بيدرو فيكاريو كذلك المطهرات الخاصة بالسيلان ومدرات البول ، ولفافة من الكمادات المعقمة ليغير الضماد الذي يضعه ، واستطاع التبول مرتين خلال فترة الصباح . ومع ذلك ، فإن حياته أخذت تصبح أكثر مشقة كلما تقدم النهار ، حتى أن الرائحة تراجعت إلى الموضع الثاني . وفي الثانية بعد الظهر ، عندما صهرهما نعاس القيظ ، كان بيدرو فيكاريو متعباً جداً بصورة لا يستطيع معها البقاء مستلقياً على السرير . ولكن ذلك التعب نفسه كان يمنعه من البقاء واقفاً على قدميه . فالألم الذي بين فخذيه يصل إلى عنقه ، ثم انحبس بوله ، ومما زاد في آلامه يقينه المرعب بأنه لن يستطيع النوم في بقية حياته . «بقيت مستيقظاً أحد عشر شهراً» ، هذا ما قاله لي ، وكنت أعرفه معرفة تجعلني أعلم أن ما يقوله صحيح . لم يستطع تناول الغداء . أما بابلو فيكاريو ، فقد أكل قليلاً من كل صنف أحضروه لهما ، وبعد ربع ساعة من ذلك أفلت في إسهال منتن . وفي الساعة السادسة مساء ، وبينما كانوا يقومون بتشريح جثة سنتياغو نصار ، استُدعي العمدة على وجه السرعة لأن بيدرو فيكاريو كان مقتنعاً بأنهم قد سمموا أخاه . «كنت غارقاً بالسوائل ـ قال لي بابلو فيكاريو ـ ولم نستطع أن ننتزع من

رأسينا بأنها محاولة من جانب الأتراك»[1] . وكان عندها قد ملأ الكنيف المتنقل مرتين ، ورافقه الحارس المناوب ست مرات أخرى إلى مرحاض مكتب العمدة . وهناك وجده الكولونيل أبونتي عند عودته ، بينما كان الحارس يصوب إليه سلاحه في المرحاض الذي بلا أبواب ، وهو يتبرز بسيولة ، بحيث أن التفكير بالتسمم لم يكن أمراً سخيفاً . ولكنهم استبعدوا الفكرة فوراً ، عندما تأكد لهم بأنه لم يشرب ويأكل سوى الماء والغداء الذي بعثت به إليهما بورا فيكاريو . ومع ذلك ، فقد بقي العمدة مذهولاً ، حتى أنه أخذ السجينين إلى بيته برفقة حراسة خاصة ، إلى أن جاء قاضي التحقيق ونقلهما إلى سجن ريوهاتشا .

لقد كان خوف الشقيقين مؤشراً إلى حالة الهيجان في الشارع . إذ لم يستبعد أحد فكرة انتقام العرب ، ولكن أحداً لم يفكر بالسم سوى الأخوين فيكاريو . فقد خمن البعض بأن العرب سينتظرون حلول الليل ليصبوا البنزين من الكوة ويحرقوا السجينين في الزنزانة . ولكن ، حتى هذا الاحتمال كان ضعيفاً جداً . فقد كان العرب يؤلفون جالية من المهاجرين المسالمين الذين استقروا منذ بدايات هذا القرن في قرى منطقة الكاريبي ، ووصلوا إلى أقصى تلك القرى وأفقرها ، وهناك عاشوا وهم يبيعون الأقمشة الملونة والحلي الرخيصة في الأسواق الشعبية ، كانوا متحدين ، نشيطين ، ومتصوفين . يتزاوجون فيما بينهم ، ويستوردون قمحهم ، ويربون الخراف في باحات بيوتهم ويزرعون الحبق والباذنجان ، وولعهم العاصف الوحيد هو ألعاب الورق . استمر المسنون منهم في التحدث بالعربية القروية التي حملوها معهم من بلادهم ، وحافظوا عليها سليمة في أسرهم حتى الجيل الثاني ، أما أبناء

(١) كان البعض في أميركا الجنوبية يطلقون تسمية «أتراك» على المهاجرين العرب ، وذلك لأن أولئك المهاجرين كانوا يحملون وثائق وجوازات سفر صادرة عن الدولة العثمانية .

الجيل الثالث منهم ، باستثناء سنتياغو نصار ، فكانوا يستمعون إلى آبائهم بالعربية ويجيبونهم بالإسبانية . وهكذا ، لم يكن ممكناً التصور بأنهم سيغيرون فجأة من روحهم الرعوية ويثأرون لميتة يمكن أن نكون جميعنا مذنبين فيها . وفي المقابل ، لم يفكر أحد بانتقام أسرة بلاثيدا لينيرو ، مع أنها كانت عائلة من أصحاب التسلط والمعارك إلى أن انتهت ثرواتها ، وقد أنجبت أكثر من قاتلين من قتلة الحانات ما زالت ملوحة أسمائهم تحفظ ذكراهم .

قام الكولونيل أبونتي ، الذي كان قلقاً بسبب الشائعات ، بزيارة العرب بيتاً بيتاً ، وفي هذه المناسبة على الأقل توصل إلى نتيجة صحيحة . فقد وجدهم حائرين وحزينين ، وهم يضعون شارات الحداد على مذابح بيوتهم ، وكان بعضهم يبكون بصرخات عالية وهم جالسون على الأرض ، ولكن لم تكن لدى أي منهم أي نوايا للانتقام . وردود الفعل التي ظهرت في الصباح برزت مع حرارة الجريمة ، وقد أعلن أصحابها بأنهم ما كانوا ، في جميع الأحوال ، ليتجاوزوا حدود الضرب . وإضافة إلى ذلك ، فإن سوسيمة عبد الله ، الأم الكبيرة ذات المئة سنة ، هي التي وصفت نقيع زهرة الآلام[1] والافسنتين العجيب الذي حصد كل آثار الإسهال من بابلو فيكاريو وأفلت في الوقت نفسه ينبوع بول أخيه التوأم . وعندئذ هوى بيدرو فيكاريو في سبات مؤرق ، وتوصل شقيقه الذي شفي إلى أول غفوة بدون تأنيب ضمير . وعلى هذه الحال وجدتهما بوريسما فيكاريو في الساعة الثالثة من فجر يوم الثلاثاء ، عندما أخذهما العمدة لوداعهما .

لقد غادرت الأسرة كلها ، بمن في ذلك البنتان الكبيرتان وزوجاهما ،

(١) زهرة الآلام «Pasionaria»

بمبادرة من الكولونيل أبونتي . ذهبوا دون أن ينتبه أحد إلى ذلك ، في كنف الإجهاد الذي أصاب الجميع ، وبينما كنا نحن الأحياء المستيقظين الوحيدين نقوم بدفن سنتياغو نصار . ذهبوا ريثما تهدأ النفوس ، حسبما قال العمدة ، ولكنهم لم يرجعوا بعدها قط . غطت بورا فيكاريو وجه ابنتها المعادة بقطعة قماش لكي لا يرى أحد آثار الصفعات ، وألبستها ثوباً أحمر فاقعاً حتى لا يتصور أحد بأنها في حداد على الحبيب السري . وقبل ذهابها طلبت من الأب آمادور أن يزور ابنيها في السجن ليعترفا أمامه ، ولكن بيدرو فيكاريو رفض الاعتراف وأقنع أخاه بأنهما لم يفعلا ما يندمان عليه . بقيا وحيدين ، وفي اليوم الذي جرى نقلهما فيه إلى ريوهاتشا كانا في استرخاء تام ومقتنعين تماماً بصحة فعلتهما ، حتى أنهما لم يوافقا على خروجهما ليلاً ، مثلما رحلت الأسرة ، وإنما خرجا في وضح النهار وهما يرفعان رأسيهما . مات والدهما ، بونثيو فيكاريو ، بعد ذلك بوقت قصير . «لقد قتلته الحسرة الأخلاقية» ، هكذا قالت لي أنخيلا فيكاريو . وعندما صدر الحكم ببراءة التوأمين ، بقيا في ريوهاتشا التي تبعد مسيرة يوم واحد عن ماناورى ، حيث تعيش الأسرة . وإلى هنا حضرت بروديتيا كوتيس لتتزوج من بابلو فيكاريو الذي تعلم مهنة زخرفة الذهب في مشغل أبيه وأصبح فيما بعد صائغاً ماهراً . أما بيدرو فيكاريو الذي بقي بلا حب ولا عمل ، فقد التحق بعد ثلاث سنوات بالقوات المسلحة ، ونال رتبة رقيب أول ، وفي صباح يوم رائع توغل مع أفراد دوريته وهم يغنون أغاني العاهرات في أرض تسيطر عليها قوات حرب العصابات ، ومن يومها لم يُعرف عنهم أي شيء .

الضحية الوحيدة بالنسبة للغالبية العظمى من الناس كان بياردو سان رومان . فقد حسبوا أن أبطال المأساة الآخرين قد أدوا بكرامة ، بل وببعض العظمة ، الدور المرسوم لهم في الحياة . فقد كفر سنتياغو نصار عن فعلته ،

وأثبت الأخوان فيكاريو مقدرتهما كرجلين ، واستعادت أختهما المهتوكة شرفها من جديد . أما الوحيد الذي خسر كل شيء فهو بياردو سان رومان ، أو «بياردو المسكين» ، كما كانوا يتذكرونه طوال سنوات . ومع ذلك ، فإن أحداً لم يتذكره إلى ما بعد خسوف القمر ، في يوم السبت التالي ، عندما روى الأرمل شيوس للعمدة بأنه رأى طائراً فسفورياً يرفرف فوق بيته القديم ، وكان يفكر بأنها روح زوجته تطالب بما لها . ضرب العمدة بيده على جبهته لسبب لا علاقة له برؤيا الأرمل ، وصرخ :

ـ اللعنة! لقد نسيت ذلك الرجل المسكين!

صعد إلى الربوة مع دورية من رجاله ، فوجد السيارة المكشوفة تقف أمام البيت ، ورأى نوراً وحيداً في غرفة النوم ، لكن أحداً لم يرد على نداءاتهم . فحطموا أحد الأبواب الجانبية ، وبحثوا في الغرف المضاءة ببصيص الخسوف «كانت الأشياء تبدو كما لو أنها تحت الماء» ، وهذا ما رواه لي العمدة . وكان بياردو سان رومان فاقداً الوعي في سريره ، وما زال كما رأته بورا فيكاريو في فجر يوم الثلاثاء ، مرتدياً بنطاله الرقيق وقميصه الحريري ، ولكن دون الحذاء . وكانت هناك زجاجات فارغة على الأرض ، وزجاجات أخرى كثيرة حول السرير لم تفتح بعد ، دون أن يوجد أي أثر لطعام . وقد قال لي الدكتور ديونيسيو إغواران الذي أجرى له إسعافات مستعجلة : «كان في الدرجة الأخيرة من التسمم الكحولي» . لكنه استعاد عافيته بعد ساعات قليلة ، وما إن استعاد وعيه حتى طردهم جميعاً من البيت بأفضل طريقة استطاعها .

قال لهم :

ـ لا أريد أحداً لإزعاجي هنا ، ولا حتى أبي المحنك بطابتيه .

نقل العمدة إلى الجنرال بيترونيو سان رومان خبر هذا الحدث بحرفيته ، وحتى آخر عبارة فيه ، في برقية تنذر بالخطر . ولا بد أن الجنرال سان رومان قد انصاع لمشيئة ابنه ، لأنه لم يحضر بنفسه بحثاً عنه ، وإنما أرسل زوجته وابنتيه مع امرأتين أخريين كبيرتي السن بدتا وكأنهما شقيقتاه . وقد حضرن في مركب شحن ، متسربلات بالسواد حتى أعناقهن حداداً على نكبة بياردو سان رومان ، وشعورهن مفلتة من الألم . وقبل أن يطأن الأرض اليابسة خلعن أحذيتهن واجتزن الشارع حتى الرابية بأقدامهن العارية على تراب الظهيرة الملتهب ، وهن ينتزعن خصلاً من شعورهن ويبكين بصرخات مؤثرة بدت وكأنها صرخات طرب . رأيتهن وأنا على شرفة بيت مجدلينا أوليفير ، وأذكر بأنني فكرت بأن حزناً كهذا يمكن تصنعه فقط لإخفاء وصمات عار أكبر .

رافقهن الكولونيل لاثارو أبونتي إلى بيت الرابية ، ثم صعد الدكتور ديونيسيو إغواران على بغلته التي يستخدمها في الحالات المستعجلة . وعندما خفت حرارة الشمس ، أنزل رجلان من رجال البلدية بياردو سان رومان على أرجوحة نوم معلقة بعارضة خشبية ، وهو مغطى حتى رأسه ببطانية ، يلحق به موكب النائحات . فظنت مجدلينا أوليفير بأنه ميت ، وهتفت :

- Collons de Deu ، يا لضياعه!

كان منهوكاً بفعل الكحول مرة أخرى ، ولم يكن من السهل التصديق بأنه ما يزال حياً ، فذراعه اليمنى كانت تتجرجر على الأرض ، وكلما وضعتها الأم في أرجوحة النوم كانت تتدلى من جديد ، بحيث أنها تركت أثراً على الأرض من حافة الرابية حتى سطح المركب . وكان ذلك هو آخر ما بقي لنا منه : ذكرى ضحية .

تركوا البيت سالماً دون لمسه . وكنت أصعد مع أختي لاستكشافه في ليالي الحفلات الموسيقية عندما كنا نأتي في إجازاتنا المدرسية ، وفي كل مرة كنا نجد نقصاً في الأشياء القيمة التي في الحجرات المهجورة . وفي إحدى المرات عثرنا على حقيبة اليد الصغيرة التي طلبتها أنخيلا فيكاريو من أمها في ليلة زفافها ، لكننا لم نولها أي اهتمام . وما وجدناه فيها بدا لنا أنه أصبغة وأدوات زينة عادية لتجميل المرأة ونظافتها ، ولم أعرف فائدتها الحقيقية إلا عندما روت لي أنخيلا فيكاريو بعد سنوات عديدة حيل القوادات التي علمتها إياها صديقتاها لخداع زوجها . وكانت تلك الحقيبة هي الأثر الوحيد الذي تركته في المكان الذي كان منزلها الزوجي لخمس ساعات فقط .

وبعد سنوات ، عندما عدت لأبحث عن آخر الشهادات من أجل هذه القصة ، لم تكن في البيت حتى بقايا قبس من سعادة يولاندا دي شيوس . فقد كانت الأمتعة تختفي شيئاً فشيئاً على الرغم من الحراسة التي فرضها الكولونيل لاثارو أبونتي ، واختفت كذلك الخزانة ذات الأبواب الستة المصنوعة كقطعة واحدة لا يمكن فك أجزائها ، والتي جاء معلمو النجارة من مومبوس لصنعها في البيت ، لأن إدخالها من الأبواب لم يكن ممكناً . كان الأرمل شيوس سعيداً في البداية لأنه كان يفكر بأن زوجته هي التي ترجع لتأخذ متاعها . وكان الكولونيل لاثارو أبونتي يسخر منه ، إلى أن خطر له في إحدى الليالي أن يقيم جلسة استحضار أرواح ليستوضح السر ، وعندئذ أكدت له روح يولاندا شيوس بنفسها أنها هي فعلاً من تسترجع متاع سعادتها لنقله إلى بيتها في عالم الموت . بدأ البيت يتقوض . وراحت سيارة الزفاف تخرب أمام الباب . ولم يبق منها في النهاية سوى الهيكل المتعفن بفعل تقلبات الطقس . ولم يعرف شيء عن صاحبها خلال سنوات طويلة .

ثمة أقوال له في محضر التحقيق ، ولكنها قصيرة وعادية حتى لتبدو وكأنها قيلت في اللحظة الأخيرة لإنجاز تقليد لا بد منه . والمرة الوحيدة التي حاولتُ فيها التحدث إليه ، بعد ثلاث وعشرين سنة ، استقبلني بشيء من العدوانية ، ورفض إمدادي بأقل المعلومات التي ستمكن من توضيح دوره في المأساة . ومع ذلك ، فإن أبويه نفسهما لا يعرفان عنه أكثر مما نعرف ، وليست لديهما أدنى فكرة عما أتى ليفعله في قرية نائية سوى السبب الظاهري بأنه أتى للزواج من امرأة لم يرها قط من قبل .

وبالمقابل ، كنت أحصل على دفقات متواصلة من أخبار أنخيلا فيكاريو ، جعلتني أرسم لها صورة دقيقة . فقد ذهبت شقيقتي الراهبة لبعض الوقت إلى أعالي غواخيرا في محاولة لتحويل آخر الوثنيين إلى المسيحية ، واعتادت أن تتوقف لتتحدث معها في الضيعة المكتوية بأملاح الكاريبي ، حيث حاولت أمها دفنها في الحياة . «إن ابنة خالتك تبعث إليك بتحياتها» ، هكذا كانت تقول لي دائماً . وقد روت لي شقيقتي مارغوت التي كانت تزورها أيضاً في السنوات الأولى ، بأنها قد اشترت بيتاً بجانب البحر ، له باحة كبيرة جداً تلعب فيها الرياح ، ومشكلتها الوحيدة هي ليالي المد البحري العالي ، لأن المراحيض عندها تفيض ، وتبقى الأسماك التي دخلت مع الماء حتى الصباح وهي تتخبط في غرف النوم . وجميع الذين رأوها في تلك الفترة يتفقون على أنها كانت ساهية دائماً وماهرة في العمل على ماكينة التطريز ، وأنها توصلت من خلال عملها إلى النسيان .

وبعد مدة طويلة ، في فترة غير واضحة المعالم ، كنت خلالها أحاول أن أفهم شيئاً عن نفسي وأنا أبيع الموسوعات والكتب الطبية في قرى غواخيرا ، وصلت صدفة إلى ذلك المكان الاحتضاري الذي يسكنه الهنود . وفي نافذة

مطلة على البحر ، كانت تجلس امرأة في حداد نصفي تضع نظارات إطارها من الأسلاك ، وهي تطرز على ماكينة في أكثر ساعات النهار حراً . كان شعرها الأشيب مصفراً ، وفوق رأسها يوجد قفص معلق ، فيه كناري لا يتوقف عن الغناء . وعند رؤيتها هكذا ، ضمن ذلك الإطار الشاعري ، لم أرغب في الاقتناع بأن تلك المرأة هي المرأة نفسها التي كنت أتصورها ، لأنني قاومت الموافقة على فكرة أنه يمكن للحياة أن تنتهي إلى أن تكون مشابهة جداً للأدب الرديء . ولكنها كانت هي : أنخيلا فيكاريو ، بعد ثلاث وعشرين سنة من المأساة .

عاملتني كما كانت تعاملني دائماً ، كابن خالة بعيد القرابة . وأجابت عن أسئلتي بعقل راجح ومزاج مرح . كانت ناضجة وبارعة جداً ، حتى أنه كان من الصعب الاقتناع بأنها هي نفسها . ولكن ما فاجأني أكثر من سواه هو الأسلوب الذي توصلتْ إليه لفهم حياتها . وبعد دقائق قليلة لم تعد تبدو لي بأنها هرمة كما تخيلت للوهلة الأولى ، وإنما شابة جداً مثلما هي في الذاكرة تقريباً ، ولا علاقة بينها وبين تلك الفتاة التي أجبروها على الزواج دون حب وهي في العشرين . أما أمها التي هرمت بصورة بائسة فقد استقبلتني كما لو أنني شبح يصعب تذكره . ورفضت التحدث عن الماضي ، فاكتفيت لهذه القصة ببعض العبارات المتفرقة من محادثتها مع أمي ، وعبارات أخرى قليلة استخرجتها من أعماق ذاكرتي . لقد قامتْ بما هو أكثر من المستحيل لتميت أنخيلا فيكاريو في الحياة ، ولكن ابنتها نفسها أحبطت لها نواياها ، لأنها لم تجعل من محنتها سراً قط . بل على العكس ، فقد كانت ترويها لكل من يريد سماعها وبكل تفاصيلها ، ما عدا السر الذي لن تكشف النقاب عنه مطلقاً : من هو المسبب الحقيقي للأذى الذي لحق بها ، وكيف ومتى حدث ذلك ، لأن أحداً لم يصدق في الواقع أن يكون الفاعل هو سنتياغو نصار .

فهما ينتميان إلى عالمين مختلفين . ولم يرهما أحد معاً في يوم من الأيام ، خصوصاً وهما وحيدان . وكان سنتياغو نصار مترفعاً جداً بحيث لا يمكن له أن يلتفت إليها . فقد كان يقول لي عندما يريد ذكرها : «ابنة خالتك الحمقاء» . وفوق ذلك ، فقد كان باشقاً بين الدجاج ، كما كنا نقول في تلك الأيام . فهو يفض ، مثلما كان يفعل أبوه ، بكارة كل فتاة تبدأ بالتفتح في تلك الجبال ، ولكن لم تعرف عنه في القرية أي علاقات سوى علاقته الشرعية بخطيبته فلورا ميغيل ، والعلاقة العاصفة التي سببت له الجنون طوال أربعة عشر شهراً مع ماريا أليخاندرينا ثيرفانتس . والرواية الأكثر انتشاراً ، وربما الأكثر خبثاً ، هي التي تقول إن أنخيلا فيكاريو كانت تتستر على شخص تحبه فعلاً ، وقد اختارت اسم سنتياغو نصار لأنها اعتقدت بأن أخويها لن يتجرأا عليه . وقد حاولت أنا بالذات أن أنتزع منها تلك الحقيقة عندما زرتها في المرة الثانية ، فنظمتُ حججي وأدلتي جيداً ، ولكنها رفعت نظرها قليلاً عن عملها في التطريز لتدحضها كلها بقولها لي :

ـ لا تفكر أكثر بهذا الموضوع يا ابن خالتي . لقد كان هو .

وما عدا ذلك فقد روت لي كل شيء دون أي كتمان ، حتى كارثة ليلة الزفاف . روت أن صديقتيها دربتاها لتُسكر زوجها بالشراب وهو في السرير حتى يفقد رشده ، ثم أن تبدي خجلاً أكثر من الذي تشعر به لتجعله يطفئ النور ، وأن تمسح أعضاءها بمزيج من الماء وحجر الشب لتتصنع العذرية ، وأن تلطخ ملاءة السرير بكروم الزئبق الأحمر لتستطيع عرضه في اليوم التالي في باحة بيتها الزوجي . ولكنهما لم تضعا في حسابهما كقوادتين أمرين اثنين : مقاومة بياردو سان رومان الاستثنائية للمشروبات ، والطوية النقية التي تتمتع بها أنخيلا فيكاريو مخبأة في البلادة التي فرضها عليها وضعها

كفاقدة للعذرية . وقد قالت لي : «لم افعل شيئاً مما قالتاه لي ، لأنني كلما فكرت بالأمر أكثر كلما تنبهت إلى أن ذلك كله هو قذارة لا أستطيع ممارستها مع أحد ، وخصوصاً مع الرجل المسكين الذي قاده سوء حظه إلى الزواج مني» . وهكذا تركته يعريها دون أي تحفظ في غرفة النوم المضاءة ، بعيداً عن كل المخاوف التي كانت تتلف حياتها . وقالت لي : «لقد كان الأمر سهلاً جداً ، لأنني كنت مصممة على الموت» .

الحقيقة أنها كانت تتحدث عن محنتها دون خفر أو حياء لتواري المحنة الأخرى ، المحنة الحقيقية ، التي كانت تلهب دخيلتها . لم يخطر ببال أحد يوماً ، إلى أن قررت هي إخباري ، بأن بياردو سان رومان قد بقي في حياتها إلى الأبد مذ أعادها إلى بيتها . لقد كانت ضربة قاضية . وقد قالت لي : «عندما انهالت أمي عليّ بالضرب ، بدأت أتذكره فجأة» . كانت اللكمات تسبب لها ألماً أقل لأنها كانت تعلم بأنها تُضرب بسببه . وتابعت التفكير فيه وقد اعترتها الدهشة من نفسها عندما كانت تجهش بالبكاء وهي منبطحة على أريكة غرفة الطعام . وقالت لي : «لم أكن أبكي بسبب الصفعات أو بسبب أي شيء آخر مما عانيته . كنت أبكي من أجله» . واستمرت تفكر فيه بينما كانت أمها تضع لها كمادات زهرة العطاس على وجهها ، وفكرتْ فيه أكثر عندما سمعت الضجة في الشارع وصوت الأجراس في البرج ، ودخلت أمها لتقول لها إنها تستطيع النوم الآن ، لأن أسوأ ما في الأمر قد انقضى .

كانت قد فكرت فيه زمناً طويلاً دون أي أمل عندما رافقت أمها لفحص عينيها في مستشفى ريوهاتشا . ودخلتا في طريقهما إلى فندق الميناء الذي كانتا تعرفان صاحبه . وطلبت بورا فيكاريو كأس ماء في حانة الفندق .

وبينما هي تشربه ، مديرة ظهرها لابنتها ، رأت هذه الأخيرة أفكارها بالذات منعكسة على المرايا المتقابلة في الصالة . التفتت أنخيلا فيكاريو برمقها الأخير ، ورأته وهو يمر بجانبها دون أن يراها ، ورأته يخرج من الفندق . ثم نظرت إلى أمها من جديد وقد تفتت قلبها إرباً . كانت بورا فيكاريو قد انتهت من شرب الماء ، فمسحت شفتيها بكمها وابتسمت لها بنظارتيها الجديدتين . وفي تلك الابتسامة ، رأتها أنخيلا فيكاريو ، لأول مرة منذ ميلادها . رأتها كما هي : امرأة مسكينة كل اهتمامها ينصب على تثقيف نقائضها . فقالت : « خراء » . كانت قلقة جداً ، حتى أنها قطعت رحلة العودة كلها وهي تغني بصوت عال ، ثم ألقت بنفسها على سريرها لتبكي طوال ثلاثة أيام .

لقد ولدت من جديد . وقالت لي : « أصبحت مجنونة به... مجنونة تماماً » . كان يكفي أن تغمض عينيها لتراه ، وكانت تسمعه يتنفس في البحر ، ويوقظها في منتصف الليل اتقاد جسده في السرير . وفي نهاية ذلك الأسبوع ، الذي لم تنل فيه دقيقة واحدة من الراحة ، كتبت له رسالة قصيرة عادية ، أخبرته فيها بأنها رأته وهو يخرج من الفندق ، وأنها تتمنى أن يكون قد رآها كذلك . وانتظرت الرد دون طائل . وبعد شهرين ، وقد أنهكها الانتظار ، بعثت له برسالة ثانية تحمل أسلوب الرسالة الأولى نفسه وغرضها الوحيد على ما يبدو هو معاتبته على عدم مجاملته . وبعد ستة شهور من ذلك كانت قد كتبت ست رسائل دون أن تتلقى رداً ، ولكنها اكتفت بالتحقق من أنه يتلقاها .

واكتشفت أنخيلا فيكاريو ، التي أصبحت لأول مرة سيدة مصيرها ، بأن الكراهية والحب هما عاطفتان متبادلتان . وكلما بعثت برسائل ازداد تأجج

جمرات الحمى بداخلها ، وتضاعفت سخونة الحقد السعيد الذي تشعر به ضد أمها . وقد قالت لي : « كنت أتقيأ أحشائي لمجرد رؤيتها ، ولكنني ما كنت أستطيع رؤيتها إلا وتذكرته » . واستمرت حياتها كمتزوجة معادة بسيطة كحياتها وهي عازبة ، فهي تطرز دائماً على الماكينة مع صديقاتها ، مثلما كانت تفعل من قبل ، زنابق من القماش وعصافير ورقية ، لكن ما إن تنام أمها حتى تجلس في الغرفة لتكتب رسائل بلا مستقبل حتى الصباح . أصبحت واضحة ، متسلطة ، سيدة مشيئتها ، ورجعت عذراء من أجله فقط ، ولم تعترف بسلطة أخرى سوى سلطته ولا بعبودية سوى تسلطه على عقلها .

كانت تكتب رسالة كل أسبوع خلال نصف حياتها . « لم أكن أفكر أحياناً بما أقوله . قالت لي ذلك وهي تموت من الضحك . ، لكنني كنت قانعة بمعرفة أنه يتلقاها » . كانت الرسائل في البداية دعوات للوفاق ، ثم أصبحت أوراق عاشقة متخفية ، ثم بطاقات معطرة من خطيبة عابرة ، ثم مذكرات عمل ، فوثائق غرام ، وأخيراً كانت رسائل ساخطة من زوجة مهجورة تخترع أمراضاً قاسية لتجبره على العودة . وفي إحدى الليالي ، وكان مزاجها طيباً ، انسكبت المحبرة على الرسالة المكتوبة ، وبدلاً من أن تمزقها أضافت إليها ملاحظة : تأكيداً لحبي أبعث إليك بدموعي . وفي مناسبات أخرى ، وبينما هي متعبة من البكاء ، كانت تسخر من جنونها . لقد أبدلوا موظفات البريد ست مرات ، وست مرات توصلت إلى إشراكهن معها . والشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالها هو الاستسلام . ومع ذلك ، يبدو أنه ما كان يتأثر بهذيانها . وكانت كأنها تكتب إلى لا أحد .

وفي فجر أحد الأيام العاصفة ، في السنة العاشرة ، أيقظها يقينها بأنه ينام عارياً في سريرها . وكتبت له حينئذ رسالة محمومة من عشرين صفحة

أطلقت فيها دون حياء ، الحقائق الغرامية التي تعفنت في قلبها منذ ليلة نحسها . حدثته عن آثار الجراح الأبدية التي خلفها في جسدها ، وعن ملح لسانه ، وعن نورج النار في قضيبه الأفريقي . سلمت الرسالة إلى موظفة البريد التي كانت تأتي لتطرز معها في أمسيات أيام الجمعة ولتأخذ الرسائل ، وقد اقتنعت بأن تلك الوقاحة النهائية ستكون آخر احتضارها . لكنها لم تتلق الجواب . ومنذ ذلك الحين لم تعد تعي تماماً ما تكتب ، ولا لمن تكتب ، ولكنها استمرت بالكتابة دون مهادنة طوال سبعة عشر عاماً .

وفي ظهيرة يوم من أيام شهر آب ، وبينما هي تطرز مع صديقاتها ، أحست بأن أحداً قد وصل إلى الباب . لم تكن بحاجة إلى النظر لكي تعرف من يكون . «كان بديناً وقد بدأ شعره بالتساقط ، وأصبح بحاجة لاستخدام النظارات ليتمكن من الرؤية عن قرب» . هكذا قالت لي ، ثم أردفت : «لكنه كان هو ، هوا» . شعرت بالذعر ، لأنها عرفت بأنه يراها وهي متضائلة جداً مثلما كانت تراه ، ولم تؤمن بأن في قلبه حباً يكفي لتحمل ذلك . كان قميصه مبللاً بالعرق ، كما كان عندما رأته أول مرة في المهرجان ، وكان يضع الحزام نفسه ويحمل الخرج الجلدي نفسه المطرز بزخارف فضية . تقدم بياردو سان رومان خطوة إلى الأمام ، دون أن يهتم بالمطرزات الأخريات المذهولات ، ووضع الخرج على ماكينة الخياطة ، وقال :

ـ حسن ، ها أنا هنا .

كان يحمل حقيبة ملابس ليبقى ، وحقيبة أخرى مشابهة فيها حوالى ألفي رسالة كانت قد كتبتها إليه . كانت الرسائل مرتبة بحسب تواريخها ، في حزم قماشية مزينة بشرائط ملونة ، وكلها غير مفتوحة .

لم نستطع طوال سنوات أن نتحدث في أمر آخر . وتصرفاتنا اليومية المحكومة حتى ذلك الحين بعادات رتيبة ، بدأت تدور فجأة حول القلق المشترك ذاته . وكانت ديوك الفجر تفاجئنا ونحن نحاول ترتيب المصادفات العديدة المتسلسلة التي جعلت اللامعقول ممكناً ، وكان جلياً أننا لا نفعل ذلك رغبة في كشف الأسرار ، وإنما لأننا جميعنا لم نعد نستطيع الاستمرار في الحياة دون أن يعرف كل واحد منا بالضبط ما هو المكان والمهمة اللذان حددهما له الموت .

كثيرون منا لم يتوصلوا إلى معرفة ذلك . فكريستو بيدويا الذي أصبح جراحاً شهيراً ، لم يستطع أن يفسر لنفسه أبداً لماذا استسلم لدافع البقاء في بيت جديه لساعتين ريثما يأتي المطران ، بدلاً من الذهاب ليستريح في بيت والديه ، اللذين بقيا ينتظرانه منذ الفجر ليحذراه . ولكن غالبية الذين كان بإمكانهم عمل شيء لمنع وقوع الجريمة ، ولم يفعلوا ، واسوا أنفسهم بحجة أن قضايا الشرف هي وقف مقدس لا يقربه إلا أصحاب المأساة . «الشرف هو الحب» ، هكذا كنت أسمع أمي تقول . أما هورتينسيا باوتي التي اقتصرت مشاركتها على رؤية سكينين تقطران دماً قبل أن تصبحا

كذلك . فقد أحست بالتأثر الشديد وصارت تهذي في نوبات تأنيب الضمير . وفي أحد الأيام لم تستطع التحمل فخرجت إلى الشوارع عارية . وفلورا ميغيل ، خطيبة سنتياغو نصار ، هربت تحت تأثير القهر مع ملازم من قوة الحدود جعلها عاهرة بين عمال المطاط في فيتشادا . وأورا فييروس ، القابلة التي ولّدت ثلاثة أجيال ، أصيبت بتشنج في المثانة عندما علمت بالخبر ، ولم تعد قادرة على التبول حتى يوم موتها إلا بمسبر المجاري البولية . ودون روخيليو دي لافلور ، زوج كلوتيلدي أرمينتا الطيب الذي كان أعجوبة بحيويته وهو في السادسة والثمانين من العمر ، نهض للمرة الأخيرة ليرى كيف يقطعون أوصال سنتياغو نصار أمام بوابة بيته المغلقة ، ولم يستطع البقاء على قيد الحياة من شدة الصدمة . أما بلاثيدا لينيرو التي أغلقت تلك البوابة في اللحظة الأخيرة ، فقد تحررت من الشعور بالذنب ، وقد قالت لي : «لقد أغلقتها لأن ديفينا فلور أقسمت لي بأنها رأت ابني وهو يدخل . ولم يكن ذلك صحيحاً» . ولكنها لم تغفر لنفسها لأنها أخطأت في معرفة نذير الشؤم الواضح في الأشجار مع نجس العصافير ، واستسلمت لعادة زمنها الوبيلة في مضغ حب الهيل .

بعد اثني عشر يوماً من الجريمة ، وجد المحقق الذي كتب المحضر نفسه في قرية مكشوفة . ففي مكتب القصر البلدي القذر ، وبينما كان يشرب كميات من القهوة مع روم القصب ليتجنب سراب الحر ، اضطر إلى طلب تعزيز القوات ليبعد الحشود التي سارعت لتدلي بأقوالها دون أن يستدعيها ، وكان الجميع يتلهفون لعرض دورهم الخاص في المأساة . كان المحقق خريجاً جديداً ، فهو ما يزال يرتدي بدلة مدرسة القانون السوداء ، وعليها الخاتم الذهبي الذي يحمل شعار دفعته ، ويبدي خيلاء المبتدئ السعيد وغنائيته . لكنني لم أعرف اسمه قط . وكل ما نعرفه عن مزاجه

مستقى من المحضر الذي ساعدني أشخاص كثيرون ، بعد عشرين سنة من الجريمة ، في البحث عنه في قصر العدل في ريوهاتشا . لم يكن هناك أي تصنيف للأرشيف ، وكانت ملفات أكثر من قرن من الزمان متراكمة على أرض المبنى الاستعماري الهرم الذي استخدم لمدة يومين مقراً لقيادة فرانسيس دراك . وكان الطابق السفلي منه مغموراً ببحر مانج ، وكانت المجلدات الممزقة تطفو في المكاتب المقفرة . لقد سبرت شخصياً ذلك المستنقع من القضايا الضائعة عدة مرات ، وأنا أخوض في الماء حتى الكاحلين ، والصدفة وحدها هي التي سمحت لي ، بعد خمس سنوات من البحث ، بإنقاذ ٣٢٢ صفحة مبعثرة من أصل ٥٠٠ صفحة كانت تؤلف المحضر .

لم يظهر اسم القاضي في أي واحدة من تلك الصفحات ، ولكن من الواضح أنه كان رجلاً مكتوٍ بحمى الأدب . ولا ريب في أنه قرأ الكلاسيكيين الإسبان وبعض اللاتينيين ، ولا بد أنه يعرف نيتشه جيداً ، لأنه كان الكاتب الدارج عند الحقوقيين في ذلك الزمن . وقد بدت الملاحظات الهامشية في المحضر ـ ليس بسبب لون الحبر فقط ـ ، وكأنها مكتوبة بالدم . كان حائراً جداً باللغز الذي كان من نصيبه ، حتى أنه انساق أحياناً في استغراق شاعري مناقض لوظيفته الصارمة . ولم يكن ليستوعب ، بصورة خاصة ، كيف يمكن للحياة أن تستفيد من مصادفات كثيرة محظورة على الأدب ، لتتم دون أي عرقلة عملية موت معلنة إلى ذلك الحد .

ومع ذلك ، فإن أكثر ما لفت انتباهه بعد تحرياته المفرطة ، هو عدم العثور على دليل واحد ، أو حتى على أقل احتمال ، بأن يكون سنتياغو نصار هو مسبب الضرر فعلاً . فصديقتا أنخيلا فيكاريو اللتان كانتا شريكتيها في

خداع الزوج ، تابعتا القول خلال زمن طويل بأنهما شاركتاها سرها قبل الزواج ، لكنها لم تكشف لهما أي اسم . وأعلنتا في المحضر : «لقد أخبرتنا بالمعجزة ولم تخبرنا عن القديس صاحب المعجزة» ، وحافظت أنخيلا فيكاريو من جهتها على موقفها . فعندما سألها القاضي المحقق بأسلوبه الموارب إذا ما كانت تعرف من يكون المرحوم سنتياغو نصار ، أجابته بلا تأثر :

ـ هو من فعل بي .

وهكذا ثبت في المحضر ، ولكن دون أي تحديد للطريقة أو للمكان . وخلال المحاكمة التي استمرت ثلاثة أيام فقط ، ركز ممثل الجانب المدني معظم جهوده على ضعف ذلك الاتهام . لقد كانت حيرة القاضي المحقق أمام قلة أدلة الإثبات ضد سنتياغو نصار كبيرة ، حتى أن جهده الجيد بدا للحظات وكأنه بلا فعالية بسبب خيبة الأمل . ففي الصفحة ٤١٦ ، المكتوبة بخط يده وبحبر العطار الأحمر ، كتب ملاحظة هامشية : أعطني حكماً مسبقاً أحرك لك العالم . وتحت هذه العبارة التي تنم عن خمود الهمة ، رسم بخط مرح وبالحبر الدامي نفسه ، قلباً يخترقه سهم . لقد كان يرى ، مثل أصدقاء سنتياغو نصار المقربين ، بأن تصرف هذا الأخير في الساعات الأخيرة من حياته هو دليل قاطع على براءته .

وفعلاً ، لم تكن لدى سنتياغو نصار في صبيحة اليوم الذي مات فيه لحظة شك واحدة ، على الرغم من أنه يعرف جيداً ما هو ثمن القضية المنسوبة إليه . كان يعرف نوعية عالمه المنافق ، ولا بد أنه يعرف بأن طبيعة التوأمين البسيطة غير قادرة على مقاومة الإهانة . لم يكن هناك من يعرف بياردو سان رومان جيداً ، ولكن سنتياغو نصار كان يعرفه بما يكفي ليدرك أنه تحت

كبريائه الدنيوي المصطنع كان منقاداً تماماً مثل أي شخص لأوهام أصله . ولذا فإن إهماله الواعي كان يعني الانتحار . وفوق ذلك ، عندما علم في اللحظة الأخيرة بأن الأخوين فيكاريو ينتظرانه لقتله ، لم تنم ردة فعله عن هلع ، كما قيل كثيراً ، وإنما كانت تنم عن ارتباك البراءة .

إن انطباعي الشخصي هو أنه مات دون أن يفهم موته . فبعد أن وعد أختي مارغوت بأنه سيأتي لتناول الفطور في بيتنا . رافقه كريستو بيدويا وهو يمسك بذراعه عبر رصيف الميناء ، وكانا غافلين كليهما حتى أنهما كانا يفكران بأحلام وهمية . وقد قالت لي ميمي لويزا : «كانا سعيدين ، فحمدت الله ، لأنني ظننت بأن القضية قد سويت» . ولم يكن الجميع يحبون سنتياغو نصار هكذا بالطبع . فصاحب مبنى المولد الكهربائي ، بولو كاريو ، كان يفكر بأن رباطة جأشه ليست طبيعية وإنما هي تمثيل واستعراض . وقال لي : «كنت أعتقد بأن أمواله تحميه» ، وعلقت زوجته فاوستا لوبيث : «مثله مثل جميع الأتراك» . وكان أنداليثيو باردو قد مرّ بدكان كلوتيلدي أرمينتا ، وأخبره التوأمان بأنهما سيقتلان سنتياغو نصار فور مغادرة المطران . ففكر ، كما فكر كثيرون آخرون ، بأن ذلك ليس إلا من تهويمات المبكرين في الاستيقاظ ، ولكن كلوتيلدي أرمينتا أشارت له بأن ما يقولانه صحيحاً ، وطلبت منه أن يلحق بسنتياغو نصار ليحذره .

فقال له بيدرو فيكاريو :

ـ لا تزعج نفسك ، ويمكنك على كل حال اعتباره ميتاً .

كان التحدي واضحاً . فالتوأمان يعرفان العلاقة المتينة التي تربط أنداليثيو باردو بسنتياغو نصار ، ولا بد أنهما فكرا بأنه الشخص المناسب لمنع وقوع الجريمة دون أن يشعرا بالعار . لكن أنداليثيو باردو التقى

بسنتياغو نصار ممسكاً بذراع كريستو بيدويا بين الجماعات التي كانت تغادر الميناء ، ولم يجرؤ على تحذيره . «لقد تراخت عزيمتي» ، هكذا قال لي . ربت على كتف كل منهما ، وتركهما يتابعان السير . أما هما فلم ينتبها إليه تماماً ، لأنهما كانا ما يزالان منشغلي الفكر بحساب تكاليف حفلة الزفاف .

كان الناس يتفرقون نحو الساحة باتجاه سيرهما نفسه . وكان الحشد متراصاً ، لكن اسكولاستيكا ثيسنيرو تعتقد بأنها رأت الصديقين يسيران في الوسط دون صعوبة ، ضمن دائرة فارغة ، لأن الناس كانوا يعلمون بأن سنتياغو نصار سيموت ، وما كانوا يجرؤون على ملامسته . ويتذكر كريستو بيدويا أيضاً تصرفات غريبة تجاههما . وقد قال لي : « كانوا ينظرون إلينا وكأن وجوهنا ملونة » . فتحت سارا نورييغا دكان الأحذية الذي تملكه في لحظة مرورهما ، وقد فزعت لشحوب سنتياغو نصار ، لكنه هدأ من روعها بالقول لها دون أن يتوقف :

ـ تصوري أيتها الصغيرة سارا . . بعد سكرة الأمس .

وكانت ثيليستي دانغوند جالسة بالبيجاما أمام باب بيتها ، ساخرة ممن ارتدوا ملابسهم الاحتفالية ليصافحوا المطران ، فدعت سنتياغو نصار لتناول القهوة . وقد قالت لي : « فعلت ذلك لأكسب بعض الوقت ريثما أفكر » . ولكن سنتياغو نصار أجابها بأنه سيذهب مسرعاً لتبديل ملابسه لكي يتناول الفطور مع أختي . وأوضحت لي ثيليستي دانغوند : « لقد تنفست الصعداء . فقد توهمت فجأة بأنهما لا يستطيعان قتله ما دام واثقاً مما سيفعله » .

والوحيد الذي فعل ما فكر فيه هو جميل سايم . فما أن علم بالخبر حتى خرج من باب دكانه وانتظر سنتياغو نصار ليحذره . كان واحداً من العرب

الآخرين الذين قدموا مع إبراهيم نصار ، وكان شريكه في ألعاب الورق حتى موته ، وما زال المستشار الوراثي لعائلته . ولم تكن لأحد سلطات كسلطاته تمكنه من التحدث مع سنتياغو نصار . ومع ذلك ، فقد فكر بأنه سيسبب له فزعاً لا مبرر له إذا ما كانت الإشاعة كاذبة ، وفضل استشارة كريستو بيدويا أولاً ليعلم منه ما إذا كانت لديه معلومات أدق . ناداه لدى مروره . فربت كريستو بيدويا على ظهر سنتياغو نصار ، وهما عند منعطف الساحة تقريباً ، ولبى نداء جميل سايم .

قال له وهو يفارقه :

ـ إلى اللقاء يوم السبت .

لم يجبه سنتياغو نصار ، وإنما توجه بالعربية إلى جميل سايم ، ورد عليه هذا بالعربية أيضاً ، وهو يتلوى من الضحك . وقد قال لي جميل سايم : « إنه تلاعب بالألفاظ نتسلى به دائماً » . ودون أن يتوقف ، لوح لهما سنتياغو نصار بيده مودعاً وانعطف نحو الساحة . وكانت تلك هي آخر مرة يريانه فيها .

ما كاد كريستو بيدويا يسمع الخبر من جميل سايم حتى خرج من الدكان راكضاً ليلحق بسنتياغو نصار . كان قد رآه ينعطف نحو الساحة ، لكنه لم يجده بين الجماعات التي كانت تتفرق في الساحة . وقد رد عليه عدد من الأشخاص الذين سألهم عنه بالجواب نفسه :

ـ لقد رأيته معك للتو .

بدا له مستحيلاً أن يكون قد وصل إلى بيته في ذلك الوقت القصير ، ولكنه دخل مع ذلك ليسأل عنه ، فقد وجد البوابة الأمامية نصف مفتوحة .

دخل دون أن يرى الورقة التي على الأرض ، واجتاز الصالة المعتمة محاولاً عدم إثارة ضجة ، لأن الوقت ما زال مبكراً للزيارات ، لكن الكلاب هاجت في طرف البيت وخرجت للقائه . فهدأها بهز المفاتيح مثلما تعلم من صاحبها ، وتابعته حتى المطبخ . وفي الممر التقى بديفينا فلور وهي تحمل دلو ماء وممسحة لتنظيف أرضية الصالة . وأكدت له بأن سنتياغو نصار لم يعد إلى البيت بعد . كانت فيكتوريا غوثمان قد انتهت لتوها من وضع القدر الذي يحتوي الأرانب عندما دخل إلى المطبخ . فأدركت ما يريده فوراً ، وقد قالت لي فيما بعد : «كان قلبه يخرج من فمه» . سألها كريستو بيدويا إذا ما كان سنتياغو نصار في البيت ، وردت عليه بسذاجة متكلفة بأنه لم يأت للنوم حتى الآن .

فقال لها كريستو بيدويا

ـ إنني أتكلم بجد . فهناك من ينتظره لقتله .

نسيت فيكتوريا غوثمان السذاجة ، وقالت :

ـ هذان الشابان المسكينان لا يستطيعان قتل أحد .

فقال كريستو بيدويا :

ـ إنهما يشربان منذ يوم السبت .

فردت :

ـ لا فرق . فليس هناك مخموراً يأكل برازه .

رجع كريستو بيدويا إلى الصالة ، حيث كانت ديفينا فلور قد فتحت النوافذ . «لم تكن تمطر بالطبع» هكذا قال لي كريستو بيدويا ، وأضاف : «كانت الساعة تقارب السادسة فقط ، وكانت تنفذ من خلال النوافذ شمس

ذهبية» . وعاد يسأل ديفينا فلور إذا كانت متأكدة من أن سنتياغو نصار لم يدخل من باب الصالة . عندئذ لم تكن واثقة تماماً كما في المرة الأولى . وسألها عن بلاثيدا لينيرو ، فأجابته بأنها وضعت لها القهوة بجانب سريرها منذ لحظة ، لكنها لم توقظها ، فهكذا كانت عادتها دائماً : تستيقظ في الساعة السادسة ، تتناول القهوة ، ثم تنزل لتعطي التعليمات بشأن الغداء . نظر كريستو بيدويا إلى الساعة ، كانت تشير إلى السادسة وست وخمسين دقيقة . صعد عندئذ إلى الطابق الثاني ليتأكد من أن سنتياغو نصار لم يدخل البيت .

كان باب غرفة النوم مقفلاً من الداخل ، لأن سنتياغو نصار خرج عبر غرفة نوم أمه . ولم يكن كريستو بيدويا يعرف البيت جيداً كما لو كان بيته وحسب ، بل كان أيضاً على علاقة وثيقة بالأسرة ، فدفع باب غرفة نوم بلاثيدا لينيرو ليدخل منها إلى غرفة النوم المجاورة . كانت حزمة من أشعة الشمس تنفذ من كوة السقف ، بينما المرأة الجميلة النائمة على جانبها في أرجوحة النوم ، وهي تضع يدها على خدها مثل عروس ، تبدو غير واقعية . «لقد كانت كرؤيا» ، هكذا قال لي كريستو بيدويا . تأملها للحظة ، مأخوذاً بجمالها ، ثم اجتاز حجرتها بصمت ، ومر بجانب الحمام دون اهتمام ، ودخل إلى حجرة سنتياغو نصار . كان الفراش مرتباً لم يمس ، وعلى الكرسي ملابس ركوب الخيل المكوية جيداً ، وفوق الملابس توجد قبعة الفارس ، وعلى الأرض كانت الجزمة بجانب المهمازين . وعلى الطاولة المجاورة للسرير توجد ساعة يد سنتياغو نصار وهي تشير إلى السادسة وثمان وخمسين دقيقة . وقال لي كريستو بيدويا : «وفجأة خطر لي بأنه قد عاد ليخرج مسلحاً» . لكنه وجد المسدس الماغنوم في درج الكوميدينو . وقال لي كريستو بيدويا : «لم أطلق سلاحاً في حياتي ، لكنني قررت أخذ

المسدس وإعطائه لسنتياغو نصار» . ثبته في حزامه ، تحت القميص ، ولم ينتبه إلى أنه ليس محشواً إلا بعد وقوع الجريمة . ظهرت بلاثيدا لينيرو في الباب وهي تحمل فنجان القهوة في اللحظة التي كان يغلق بها الدرج . فهتفت :

ـ رباه! أي خوف سببته لي!

وقد خاف كريستو بيدويا أيضاً . فقد رآها في وضح الضوء ، وهي ترتدي ثوباً مزيناً بقبرات ملونة وشعرها مشعث ، وقد اختفى سحرها . وشرح لها وهو مضطرب بعض الشيء بأنه دخل بحثاً عن سنتياغو نصار .

فقالت بلاثيدا لينيرو :

ـ لقد ذهب لاستقبال المطران .

قال لها :

ـ مرّ المطران دون أن يتوقف .

وقالت :

ـ هذا ما خمنته . إنه ابن أسوأ أم .

لم تتابع لأنها انتبهت في تلك اللحظة إلى أن كريستو بيدويا كان مرتبكاً ولا يعرف أين يضع جسده . وقد قالت لي بلاثيدا لينيرو : «أرجو أن يكون الله قد سامحني ، لأنني رأيته مضطرباً جداً ففكرت فجأة بأنه دخل البيت ليسرق» . سألتُهُ ما به . وكان كريستو بيدويا واعياً بأنه في وضع مشبوه ، ولكن لم تكن لديه الشجاعة الكافية ليخبرها بالحقيقة . فقال لها :

ـ إنني لم أنم دقيقة واحدة حتى الآن .

ومضى دون تقديم أي تفسير آخر . وقد قال لي فيما بعد : «على أي حال ، كانت تتخيل دائماً أن هناك من يسرق من بيتها» . وفي الساحة التقى بالأب آمادور عائداً إلى الكنيسة ترافقه معدات القداس الذي ألغي ، وبدا له أنه غير قادر على تقديم شيء لسنتياغو نصار سوى تخليص روحه . كان يتجه مرة أخرى نحو الميناء عندما سمع من يناديه من دكان كلوتيلدي أرمينتا . وكان بيدرو فيكاريو يقف على الباب مزرقاً ومشعثاً . قميصه مفتوح وكماه مشمران حتى المرفقين ، وهو يحمل السكين العريضة التي صنعها بنفسه من نصل منجل . لقد كان موقفه متبجحاً بصورة لا يمكن معها التصديق بأنها مصادفة ، ومع ذلك ، فلم يكن ذلك الموقف هو الموقف الوحيد ولا الأكثر وضوحاً الذي حاول اتخاذه في الدقائق الأخيرة ليحولوا بينه وبين اقتراف الجريمة .

صرخ قائلاً :

ـ أخبر سنتياغو نصار يا كريستوبال بأننا ننتظره هنا لقتله .

كان بإمكان كريستو بيدويا أن يسدي له معروفاً يمنعه من اقتراف الجريمة . وقد قال لي : «لو أنني كنت أعرف كيف أطلق النار ، لكان سنتياغو نصار الآن حياً» . لكنه كان مبهوراً بتلك الفكرة الوحيدة ، بعد كل ما كان قد سمعه عن القدرة التدميرية لرصاصة مصفحة . فصرخ :

ـ إنني أحذرك بأنه مسلح بمسدس ماغنوم قادر على اختراق محرك .

كان بيدرو فيكاريو يعلم بأن ذلك غير صحيح . وقد قال لي : «لم يكن يحمل السلاح أبداً إذا كان لا يلبس ملابس ركوب الخيل» . لكنه على كل حال كان يضع في اعتباره ، عندما اتخذ قراراً بغسل شرف أخته ، أن يكون سنتياغو نصار مسلحاً ، فصاح :

- الموتى لا يطلقون الرصاص .

عندئذ ظهر بابلو فيكاريو أمام الباب . كان شاحباً مثل أخيه ، وكان يلبس سترة بدلة العرس ويحمل السكين ملفوفة بأوراق الصحف . وقد قال لي كريستو بيدويا : «لولا ذلك لما عرفت أحدهما من الآخر» . ثم ظهرت كلوتيلدي أرمينتا وراء بابلو فيكاريو ، وصرخت بكريستو بيدويا كي يسرع ، لأنه في قرية مخنثين مثل هذه القرية ، لا يستطيع منع المأساة سوى رجل مثله .

إن كل ما جرى منذ تلك اللحظة كان تحت سمع وبصر الجميع . فالناس الذين عادوا من الميناء ، ونبهتهم الصرخات ، بدؤوا يتخذون مواقع لهم في الساحة ليشهدوا الجريمة . وسأل كريستو بيدويا عدداً من معارفه عن سنتياغو نصار ، ولكن أحداً منهم لم يره . وأمام باب النادي الاجتماعي التقى بالكولونيل لاثارو أبونتي وروى له ما حدث منذ قليل أمام دكان كلوتيلدي أرمينتا . فقال الكولونيل أبونتي :

- هذا غير ممكن ، لأنني أمرتهما بأن يذهبا للنوم .

وقال كريستو بيدويا :

- لقد رأيتهما للتو وهما يحملان سكينين لذبح الخنازير .

فقال العمدة :

- غير ممكن ، لأني انتزعت السكاكين منهما قبل أن أبعث بهما للنوم . لا بد أنك رأيتهما قبل أن أفعل ذلك .

ورد كريستو بيدويا :

- رأيتهما منذ دقيقتين وفي يد كل منهما سكين لذبح الخنازير .

فقال العمدة :

- اللعنة ، لا بد أنهما عادا بسكينين آخريين إذن!

وعده بأن يهتم بالموضوع فوراً ، لكنه دخل إلى النادي الاجتماعي ليحجز موعداً للعب الدومينو تلك الليلة ، وعندما خرج كانت الجريمة قد أنجزت . حينئذ اقترف كريستو بيدويا خطأه القاتل الوحيد : لقد فكر بأن سنتياغو نصار قد قرر في اللحظة الأخيرة أن يتناول الفطور في بيتنا قبل أن يبدل ملابسه ، فذهب إلى هناك بحثاً عنه . مضى مسرعاً بمحاذاة ضفة النهر ، وهو يسأل كل من يصادفه إذا كان قد رآه ، دون أن يحصل على خبر يقين من أحد . لم يجزع لذلك ، لأن ثمة دروب أخرى تؤدي إلى بيتنا . رجته بروسبيرا أرانغو ، المتغنجة ، أن يفعل شيئاً من أجل أبيها الذي يحتضر على درجات البيت الخارجية ، والمحصن بمباركة المطران المتعجلة . «لقد رأيته عند مروري ، وكان له وجه كوجه الموتى» ، هذا ما قالته لي شقيقتي مارغوت . تأخر كريستو بيدويا أربع دقائق وهو يحسن من وضعية المريض ، ثم وعد بالعودة فيما بعد من أجل أمر مستعجل ، لكنه أضاع ثلاث دقائق أخرى لمساعدة بروسبيرا أرانغو في حمل والدها إلى حجرة النوم . وعند خروجه سمع صرخات بعيدة وبدا له وكأنهم يطلقون مفرقعات من ناحية الساحة . حاول الركض ، ولكن المسدس المثبت في حزامه بصورة سيئة أعاقه عن ذلك . وعندما انعطف في المنحنى الأخير تمكن من التعرف على ظهر أمي التي كان يقودها ابنها الأصغر بطريقة أقرب إلى الجر . فصرخ بها :

- أين هو ابنك بالعماد يا لويسا سنتياغا ؟

أدارت أمي بمشقة وجهها المغتسل بالدموع ، وردت :

ـ آه يا بني! يقولون إنهما قد قتلاه .

وهكذا كان . فبينما كريستو بيدويا يبحث عنه ، دخل سنتياغو نصار إلى بيت خطيبته فلورا ميغيل ، عند المنعطف حيث تركه لآخر مرة . وقد قال لي كريستو بيدويا : «لم يخطر ببالي أن يكون هناك ، لأن أولئك الناس لا يستيقظون أبداً قبل منتصف النهار» . وكانت قصة شائعة أن الأسرة كلها تنام حتى الساعة الثانية عشرة بأمر من ناهير ميغيل ، الذكر الحكيم في الجالية العربية . «لهذا السبب كانت فلورا ميغيل ، التي لم تعد تُطبخ بمائتين ، تحافظ على نضارتها كوردة» ، هذا ما تقوله ميرثيدس . والحقيقة أنهم كانوا يبقون الباب مقفلاً حتى ساعة متأخرة من النهار ، كعائلات كثيرة أخرى ، ولكنهم كانوا أناساً مبكرين ونشيطين . كان والدا سنتياغو نصار وفلورا ميغيل قد اتفقا على تزويجهما . وقبل سنتياغو نصار الالتزام وهو في أوج مراهقته ، وكان عازماً على تنفيذه ، ربما لأن مفهومه للزواج كان نفعياً مثل أبيه . وفلورا ميغيل من جهتها ، كانت تتمتع ببعض صفات الزهرة ، ولكنها تفتقد المرح والحكمة ، وقد قدمت خدماتها كإشبينة زفاف لجميع بنات جيلها ، أي أن الاتفاق بالنسبة إليها كان وكأنه تدبير إلهي . علاقتهما كخطيبين كانت سهلة ، بلا زيارات رسمية ولا اضطرابات قلبية . وزفافهما الذي أجل عدة مرات ، تم تحديد موعده أخيراً في عيد الميلاد القادم .

استيقظت فلورا ميغيل في يوم الاثنين ذاك مع أول صفارات مركب المطران ، وبعد قليل علمت أن الأخوين فيكاريو ينتظران سنتياغو نصار لقتله . وقد قالت لشقيقتي الراهبة ، وهي الوحيدة التي تحدثت إليها بعد المصيبة ، إنها لا تذكر من الذي أخبرها . «كل ما أعرفه هو أن الجميع كانوا على علم بالخبر في الساعة السادسة صباحاً» . ومع ذلك ، فقد بدا لها من

غير المعقول أن يقتلا سنتياغو نصار ، وخطر لها بالمقابل بأنهما سيزوجانه بالقوة من أنخيلا فيكاريو ليردا إليها شرفها . وقد قاست بسبب ذلك أزمة مهانة . وبينما كان نصف أهل القرية ينتظرون المطران ، انزوت في غرفتها وهي تبكي من الغيظ ، وترتب في الوقت نفسه علبة الرسائل التي بعثها إليها سنتياغو نصار منذ أيام المدرسة .

اعتاد سنتياغو نصار كلما مرّ ببيت فلورا ميغيل أن يحك بمفاتيحه على الشبكة المعدنية التي على النافذة ، حتى لو لم يكن هناك أحد في البيت . وفي يوم الاثنين ذاك ، كانت تنتظره وهي تضع حزمة الرسائل في حضنها . لم يكن باستطاعة سنتياغو نصار رؤيتها من الشارع ، أما هي فقد رأته من خلال الشبكة المعدنية قبل أن يحكها بالمفتاح . وقالت له :

ـ ادخل .

لم يكن أحد ، بمن في ذلك الطبيب ، قد دخل ذلك البيت في الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة . كان سنتياغو نصار قد ترك لتوه كريستو بيدويا في دكان جميل سايم ، وكان أناس كثيرون في الساحة ينتظرون قدومه ، ولذا لم يكن مفهوماً كيف أن أحداً لم يره وهو يدخل إلى بيت خطيبته . لقد بحث قاضي التحقيق كثيراً ليجد ولو شخصاً واحداً رآه ، وفعل ذلك بمثابرة واصرار كما فعلت أنا ، لكنه لم يجد أحداً . وفي الصفحة ٣٨٢ من المحضر كتب ملاحظة هامشية أخرى بالحبر الأحمر تقول : القَدَر يجعلنا غير مرئيين .

وحقيقة الأمر هي أن سنتياغو نصار دخل من البوابة الرئيسية أمام نظر الجميع ، ودون أن يفعل شيئاً يحجبه عن الآخرين . وكانت فلورا ميغيل تنتظره في الصالة ، وقد اخضرّ لونها من الغضب ، وهي ترتدي ثوباً بكسرات

من الثياب التي اعتادت لبسها للمناسبات الجديرة بالذكرى ، ووضعت حزمة الرسائل بين يديه ، وقالت له :

ـ خذ . وعسى أن يقتلاك!

وقف سنتياغو نصار حائراً ، حتى أن الحزمة سقطت من يديه ، وتبعثرت رسائله التي بلا حب على الأرض . حاول أن يلحق بفلورا ميغيل إلى غرفة نومها ، ولكنها أغلقت الباب وثبتته بالمزلاج . طرق الباب عدة مرات ، وناداها بصوت مزعج بالنسبة لتلك الساعة من النهار ، وهكذا هرعت الأسرة بأسرها فزعة . كان عددهم أكثر من أربعة عشر شخصاً ما بين أقارب وأصهار ، كبار وصغار . وآخر من خرج هو الأب ، ناهير ميغيل ، بلحيته الحمراء ، وردائه البدوي الذي أحضره من بلاده ، وكان يستعمله دائماً في بيته . لقد رأيته عدة مرات ، كان ضخماً ورصيناً ، وأكثر ما أثر فيّ هو وهج تسلطه .

ناداها بلغته :

ـ فلورا ، افتحي الباب .

دخل إلى حجرة ابنته ، بينما بقية أفراد الأسرة يتأملون سنتياغو نصار وهم مذهولون . كان جاثياً في الصالة يلتقط الرسائل عن الأرض ويضعها في العلبة . «وكأنه يقوم بعملية تكفير» ، هكذا قالوا لي . خرج ناهير ميغيل من غرفة النوم بعد دقائق ، وأومأ بيده فاختفى أفراد الأسرة جميعاً .

تابع الحديث مع سنتياغو نصار بالعربية . وقد قال لي : «لقد أدركت منذ اللحظة الأولى بأنه لم يفهم شيئاً مما قلته له» . عندئذ سأله سراً إذا ما كان يعلم بأن الأخوين فيكاريو يبحثان عنه لقتله . «شحب لونه ، وفقد

السيطرة على نفسه بحيث لم يكن ممكناً الاعتقاد بأنه يتجاهل» ، هذا ما قاله لي ناهير ميغيل . ووافق على أن موقفه لم يكن خوفاً بقدر ما كان قلقاً .

فقال له :

ـ أنت وحدك تعلم إذا ما كانا محقين أم لا . وعلى كل حال ، لم يبق أمامك الآن سوى أحد أمرين : فإما أن تختبئ هنا وهذا البيت مثل بيتك ، أو أن تخرج ببندقيتي .

فقال سنتياغو نصار :

ـ لست أفهم شيئاً مما تقول .

كانت هذه هي العبارة الوحيدة التي تمكن من قولها ، وقالها بالإسبانية . «كان يبدو وكأنه عصفور مبلل» ، قال لي ناهير ميغيل . وقد أخذ العلبة من بين يديه لأنه لم يكن يعرف أين يضعها ليفتح الباب ، وقال له :

ـ سيكونان اثنين ضد واحد .

خرج سنتياغو نصار . وكان الناس قد تجمعوا في الساحة كما في أيام الاستعراضات . ورآه الجميع وهو يخرج ، وجميعهم أدركوا بأنه أصبح يعرف بأنهما سيقتلانه ، وكان مرتبكاً إلى حد أنه لم يجد طريق بيته . ويقال إن أحدهم صرخ به من فوق إحدى الشرفات : «لا تذهب من هنا أيها التركي . اذهب من جهة الميناء القديم» . بحث سنتياغو نصار عن مصدر الصوت . وصرخ به جميل سايم بأن يدخل إلى دكانه ومضى ليأتي ببندقيته الخاصة بالصيد ، لكنه لم يتذكر أين خبأ الخرطوش . ومن جميع الجهات بدؤوا يصرخون به ، ودار سنتياغو نصار عدة مرات إلى الخلف وإلى الأمام وهو

مبهور بتلك الأصوات التي تأتيه دفعة واحدة . كان واضحاً أنه يتجه إلى بيته من جهة بوابة المطبخ ، ولكن لا بد أنه انتبه فجأة إلى أن البوابة الرئيسية مفتوحة .

ـ ها هو آت ـ قال ذلك بيدرو فيكاريو .

كلاهما رآه في الوقت نفسه . خلع بابلو فيكاريو سترته ووضعها على الكرسي ، ثم نزع اللفافة الورقية عن سكينه التي تشبه الحسام الأحدب ، وقبل أن يغادرا المكان ، رسما معاً ودونما اتفاق مسبق إشارة الصليب . عندئذ أمسكت كلوتيلدي أرمينتا بقميص بيدرو فيكاريو وصرخت بسنتياغو نصار أن يركض لأنهما سيقتلانه . كانت صرخة مدوية أطفأت جميع الصرخات الأخرى . «لقد أصابه الفزع في البداية لأنه لم يعرف من الذي يصرخ به ولا من أين يأتي الصراخ» ، هكذا قالت لي كلوتيلدي أرمينتا . ولكنه عندما رآها . رأى كذلك بيدرو فيكاريو الذي طرحها على الأرض بدفعة قوية ، ولحق بأخيه . كان سنتياغو نصار على بعد أقل من خمسين متراً عن بيته ، فركض فجأة باتجاه البوابة الرئيسية .

قبل ذلك بخمس دقائق ، كانت فيكتوريا غوثمان قد روت في المطبخ لبلاثيدا لينيرو ما كان يعرفه الجميع . كانت بلاثيدا لينيرو امرأة قوية الأعصاب ، فلم تدع علامة واحدة من علامات الذعر تظهر عليها . وسألت فيكتوريا غوثمان عما إذا كانت قد قالت شيئاً لابنها ، فكذبت عليها هذه وهي مرتاحة الضمير حين ردت عليها بأنها ما كانت تعرف شيئاً عندما نزل ليشرب القهوة . وفي الصالة ، كانت ديفينا فلور ما تزال تمسح الأرض حين رأت سنتياغو نصار يدخل من البوابة المفضية إلى الساحة ، ويصعد سلّم السفينة المؤدي إلى غرف النوم . وقد قالت لي ديفينا فلور فيما بعد : «لقد

كانت رؤيا واضحة تماماً . كان يرتدي ملابسه البيضاء ويحمل في يده شيئاً لم أره جيداً ، لكنه بدا لي باقة من الزهور» . ولهذا ، عندما سألتها بلاثيدا لينيرو عنه ، طمأنتها ديفينا فلور بالقول لها :

ـ لقد صعد إلى غرفته منذ دقيقة .

عندئذ رأت بلاثيدا لينيرو الورقة الملقاة على الأرض ، لكنها لم تفكر في التقاطها ، ولم تعلم بما تحتويه إلا عندما عرضها عليها أحدهم فيما بعد ، وسط اضطراب المأساة . ومن خلال البوابة المفتوحة لمحتْ الأخوين فيكاريو يتقدمان عدواً باتجاه بيتها وهما يحملان السكينين مكشوفتين . لقد استطاعت من مكانها في البيت أن تراهما ، ولكنها لم تلمح ابنها الذي كان يركض من الزاوية الأخرى نحو البوابة . وقالت لي : «فكرت بأنهما يريدان الدخول لقتله في البيت» . عندئذ ركضت باتجاه البوابة وأغلقتها بشدة . وكانت توصدها بالمزلاج عندما سمعت صرخات سنتياغو نصار ، وسمعت كذلك طرقات الرعب على البوابة ، لكنها ظنت أنه فوق ، وأنه يشتم الأخوين فيكاريو من شرفة غرفة نومه . فصعدت لتساعده .

كان سنتياغو نصار بحاجة إلى بضع ثوان ليدخل عندما أُغلقت البوابة . وتمكن من طرقها بقبضته عدة مرات ، ثم استدار في الحال ليواجه بيديه العزلاوين عدويه . «لقد ارتعدت عندما رأيته مواجهة ، لأنه بدا لي أكبر بمرتين مما هو عليه» هذا ما قاله لي بيدرو فيكاريو . رفع سنتياغو نصار يده ليصد الضربة الأولى من بيدرو فيكاريو الذي هاجمه من الجهة اليمنى بالسكين المستقيم .

وصرخ :

ـ يا ابنا العاهرة!

شقت السكين باطن يده اليمنى ، ثم غاصت إلى أعماق خاصرته . وسمع الجميع صرخته المتألمة :

ـ آه ، يا أماه!

سحب بيدرو فيكاريو السكين من جديد بثبات نبضه الضاري كجزار ، وعاجله بضربة ثانية في الموضع نفسه . «الأمر الغريب هو أن السكين كانت تخرج نظيفة» ، هكذا صرح بيدرو فيكاريو للمحقق ، وأضاف : «لقد ضربته ثلاث ضربات على الأقل دون أن تخرج قطرة دم واحدة» . انحنى سنتياغو نصار وذراعاه متقاطعتان على بطنه بعد الضربة الثالثة ، وأنّ مثل عجل ، وحاول أن يدير لهما ظهره . فعاجله عندئذ بابلو فيكاريو ، الذي كان إلى يساره حاملاً السكين المعقوف بالضربة الوحيدة في الظهر ، فانبجست دفقة من الدم بضغط عالٍ وبللت قميصه . وقد قال لي : «رائحة الدم كانت مثل رائحته» . وبعد ثلاثة جراح قاتلة ، أدار لهما سنتياغو نصار وجهه من جديد ، واستند بظهره إلى بوابة أمه ، دون أن يبدي أدنى مقاومة ، وكأنه لا يريد سوى مساعدتهما في الإجهاز عليه بالتساوي . وقال بيدرو فيكاريو للمحقق : «لم يعد يصرخ . بل على العكس : بدا لي وكأنه يضحك» . عندئذ واصلا طعناتهما بضربات متناوبة وسهلة ، وهما يطفوان في المستنقع المبهر الذي وجداه في الجانب الآخر من الخوف . لم يسمعا صرخات القرية المذعورة من هول جريمتيهما . «شعرتُ بما يشعر المرء به وهو يجري على صهوة جواد» ، هكذا أعلن بابلو فيكاريو . ولكنهما استيقظا فجأة على الواقع ، لأنهما كانا منهوكين ، ومع ذلك فقد بدا لهما بأن سنتياغو نصار لن ينهار أبداً «اللعنة! لا يمكنك أن تتصور كم هو شاق قتل إنسان!» ، هذا ما قاله لي بابلو فيكاريو . وفي المحاولة للقضاء عليه نهائياً ، بحث بيدرو

فيكاريو عن موضع القلب ، لكنه بحث عنه عند الإبط تقريباً ، حيث توجد قلوب الخنازير . والواقع أن سنتياغو نصار لم يسقط لأنهما هما بالذات كانا يسندانه إلى الباب بضربات سكينيهما . طعنه بابلو فيكاريو ، وقد سيطر عليه اليأس ، طعنة أفقية في بطنه ، فتدفقت الأمعاء مفرقعة . أراد بيدرو فيكاريو أن يطعن طعنة مماثلة ، لكن قبضته مالت من الذعر ، وأصابه بضربة طائشة في الفخذ . بقي سنتياغو نصار مستنداً إلى الباب لبرهة ، إلى أن رأى أحشاءه نظيفة وزرقاء تحت الشمس ، ثم خر على ركبتيه .

بعد أن بحثت بلاثيدا لينيرو عنه صارخة في غرف النوم ، وهي تسمع صرخات أخرى ليست صرخاتها دون أن تعرف من أين تأتي ، نظرت من النافذة المطلة على الساحة فرأت التوأمين فيكاريو وهما يركضان نحو الكنيسة . كان يلحقهما عن قرب جميل سايم ، حاملاً بندقيته التي يصطاد بها النمور ، وعرب عزل آخرون . وفكرت بلاثيدا لينيرو بأن الخطر قد زال . بعد ذلك خرجت إلى الشرفة ، ورأت سنتياغو نصار ملقى أمام الباب ، ووجهه في التراب ، وهو يحاول النهوض وسط دمه . انتصب منحنياً من وسطه ، وبدأ يمشي وهو في حالة من الغيبوبة ممسكاً بيديه أحشاءه المتدلية .

مشى أكثر من مئة متر لكي يدور حول البيت كاملاً ويدخل من باب المطبخ . كان ما يزال به من الصحو ما يكفي لمنعه من الذهاب عبر الشارع ـ وهو الطريق الأطول ـ ، فدخل من البيت المجاور . لم يكن بونتشو لاناو وزوجته وأولاده قد علموا بما حدث قبل لحظات على بعد عشرين متراً من باب بيتهم . وقالت لي الزوجة : «سمعنا الصراخ ، لكننا ظننا أنها الحفلة المقامة للمطران» . كانوا قد بدؤوا بتناول فطورهم عندما رأوا سنتياغو نصار يدخل مبللاً بالدم وممسكاً بيديه عناقيد من أحشائه . وقال لي بونتشو

لاناو : «الشيء الوحيد الذي لم أستطع نسيانه هو رائحة البراز الرهيبة» . ولكن ابنته الكبرى أرخينيدا لاناو روت أن سنتياغو نصار كان يمشي بترفعه المعهود ، وهو يوازن خطواته جيداً ، وأن وجهه العربي بتجاعيده المتفرقة كان أجمل من السابق . ولدى مروره قبالة المائدة ابتسم لها ، وتابع طريقه عبر غرف النوم حتى المخرج الخلفي للبيت . وقالت لي أرخينيدا لاناو : «لقد شلنا الرعب» . كانت عمتي وينفريدا ماركيز تقوم بتنظيف سمكة شابل في باحة بيتها على الضفة الأخرى من النهر ، ورأته وهو ينزل درجات رصيف الميناء القديم باحثاً بثبات عن اتجاه بيته . فصرخت :

ـ ما الذي جرى لك يا بني سنتياغو ؟

تعرف عليها سنتياغو نصار ، وقال :

ـ لقد قتلوني أيتها الأم ويني .

تعثر بالدرجة الأخيرة ، لكنه نهض فوراً . وقالت لي عمتي وينفريدا : «لقد نفض التراب الذي علق بأحشائه» . ثم دخل إلى بيته من البوابة الخلفية التي كانت مفتوحة منذ الساعة السادسة وانهار على وجهه في المطبخ .